شيفرة وان

«مسارات القدر»

رواية

الكتاب: شيفرة وان «مسارات القدر»

الكاتب: زيرڤان أمين

الطبعة الأولى: 2021

جميع الحقوق محفوظة

الترقيم الدولي:

الناشر: دار الزمان
للطباعة والنشر والتوزيع
فايبر وواتس أب:
0049 176 76866381
موبايل: 0049 176 76866381
E-mail:zeman005@yahoo.con

الإخراج الداخلي: دار الزمان
تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح

لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه إلا بإذن خاص ومسبق من الناشر

Copy Right Dar Zaman Publishing
All Right Reserved. No Part of This Publication May be Reproduccd Transmitted Without Premission in Writing From The Publisher

زيرڤان أمين

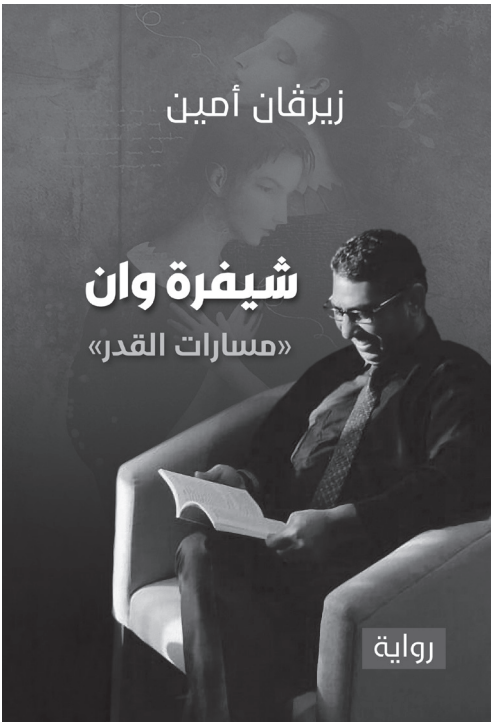

شيفرة وان

«مسارات القدر»

رواية

اهداء

... إلى القدر الذي رسم مساري لأعيش في عائلة رائعة... وأكون أسرة أروع.

إلى الحبيبة الغالية: لولاف... نبض الحياة.

إلى التي رممت إنكساراتي، فأعادتني إلى الحياة.

إلى أحبائي: شان و شاد ... امتدادي في الحياة.

إلى الذين يتمكنون من فك شيفرات وان، لتتجلى لهم بعض مسارات القدر.

كلمة لابد أن تُقرأ...

للحياة، للحب، للإنسان، للقلوب، للأفكار والأقوال أبعاد مختلفة، لا نراها، ولا نفهمها إلا قليلاً، والبقية تبقى أسرار دفينة، معاني غامضة، طلاسم مشفرة، وأبواباً مقفلة موصدة بوجوهنا لا تُفتح إلّا برمزٍ سري أو مفتاح خاص.

ولهذه الرواية أيضاً عدد من الشيفرات، إن تمكنت من فكها، سترى العالم، الحياة، الحب، الإنسان، الأفكار، وحتى نفسك بمنظار آخر، وقد تجد نفسك واحداً من شخوصها، تتفاعل مع الآخرين دون أن تعلم، وكأنك في معترك الحياة. فجميع أحداثها مستمدة من أحداث وتفاعلات واقعية غلفت بنوع من الخيال الأدبي، لتتطابق مع مقاسات أغلب الناس. الذين يعبرون الحياة في مسارات مختلفة، عليها معالم الإرشاد، ثم فجأة تظهر حفر، إلتواءات، إنحدارات، مضائق ضبابية، تهلك البعض، وتترك في البعض ندوباً وعاهات مستديمة، والبعض الآخر يفلت منها سليماً بشق الأنفس، كل حسب معرفته، وخبراته، وتداركه للمخاطر؛ فحياتنا نتاج أفكارنا .

فإختلافنا، سر وجودنا، وتحكمنا بالحياة، والحب، والتناغم، سر الديمومة الدنيوية، ومبعث ألوان الطبيعة وزهو الحياة، اختلاف القوميات واللغات، والأديان والفلسفات، وأساليب الحياة. وهنا يأتي القدر بمسارات متجلية ليلعب دوره.

رحلة ممتعة... مع الود

سَمعَتْ صَوْت صَرير الباب، وإغلاقه بالمفتاح، فَتَظاهَرَتْ بالنَوم، مُستَلقيةً على جَنبها الأيسَر كَالعادَة. دونَ أن يغير ملابسه، وغسلُ وجههَ، إستلقى شاكرٌ على السريرَ، فالتفتت إليه، وكان على غير عادته، خاوى الجسد، محمر العينين، أشعث الشعر، مصفر الوجه، تنبعث منه رائحة المخدر والنبيذ، كأنه شخص آخر. وما أن ضمته إلى صدرها، حتى انهارت قلاعه المحصنة، وبدأ بالنحيب والبكاء الشديدين، وإرتجف جسده، وكأنه دخل مخبئ الجن، أو مسّه الجن، أو كأنه طفل صغير يرتعد هلعاً. وكان لسان حاله يقول: حبيبتى ضميني إلى صدرك، كي أنسى همي وأنيني. متعكزاً على عطفها وعاطفتها وحبها الذي لا يشوبه شائبة، كأنه باحثٌ عن الحنان.

مسحت رأسه وضمته إلى صدرها بشدة، وهدّأت من روعه: حبيبي، ستكون بخير. فهدأ، وبدأت جفونه تنسدل ليغرق في نوم عميق، ويدخل مدن الأحلام، لكن سرعان ما إنتابه حلم مزعج أشبه بكابوس مخيف، أو غثيان محمومٍ؛ إذ كان يستغيث ويردد إسماً غير مألوفٍ (سوزان)!.

- سوزان سوزان... سوزان، لماذا يا سوزان؟

يبدو أن شاكر كان في صراع محتدم في أحلامه، وأحدث ذلك نزاعاً بينها وبين مشاعره. فبدأت زوجته بتركيب الصور عن تصرفاته، وطبيعة عمله، وتغيراته السلوكية في الآونة الأخيرة، ومن ثم ترديد ذلك الإسم (سوزان)، الذي أثار مخاوفها وكأن كيس أسرار ألقي في طريقها.

- من هي هذه المخلوقة التي اقتحمت حياتنا على حين غرة؟.

استيقظت على صوت المنبه، ومازال شاكر في أحضانها، غارق في نوم عميق كطفل رضيع، وجد الحنان والأمان في حضن أمه، فوضعت رأسه على وسادته الناعمة، ونهضت عن السرير العريض، وأعدت الفطور، ثم أيقظته ليتناول فطوره، ويعد نفسه للذهاب إلى عمله في المنظمة الخيرية.

ولم تحدثه بخصوص ليلة البارحة، إلا أنها احتفظت بجميع التفاصيل، وحفظتها عن ظهر قلب، حتى نبرة صوته عندما كان يناشد (سوزان)، وكأنها قد تركته بعد زمن من العشق والهيام؛ لذا كان يناشدها بحرقة. فالأنثى المذهلة هي التي قررت أن تزهر بدلاً من أن تذبل، وتعمل جاهدة على ذلك، ولم تقبل أن يكون قلبها مقبرة للخيبات والإنكسارات. إلا أنها عملت العكس رغم أنها الأنثى المذهلة، والزوجة الصادقة الصالحة. ولكن نقطة ضعفها أنها تعامل الناس بسطحية مفرطة.

لم يكن نهارها خيرٌ من ليلها، فلم تكن تحس بشيء، ولم تنتبه له عندما أشار إليها بيده ليودعها، وهو يغلق باب المنزل، إلى أن نادتها إبنة أختها:

- خالتي، هل أنت بخير؟

- نعم عزيزتي أنا بخير.

- ولكن يبدو أنك لست كذلك، شعرك!، ملابسك!، ملامح وجهك!، أين إختفت إبتسامتك؟ كأنك تحولت إلى كتلة من الحزن!.

- نعم حبيبتي لست بخير، لا أعرف لماذا؟، ولكنني سأعرف، أو حتى لا أريد أن أعرف، ولكن أريد أن أكون بخير، أن نكون جميعاً بخير... ثم إختصرت حياتها مع شاكر.

- أكافح لأن يمر الصعب فيمر العمرُ، يمرّ وأُضحي بنفسى لغيري، وغيري يضحي بي لأجل غيري، أيّ أنانية هذه!.

كأن أمنيتها اليتيمة أن يكون الناس كلهم مثلها. إلا أنها لم تكن تعلم، أن المرأة، بالنسبة للرجل، إما طوق نجاةٍ تحميه أو حبل مشنقةٍ تفنيه. ولكنها الآن تحتاج إلى طوق نجاةٍ آمن، أو ستتحول إلىً حبل مشنقة قاتل، فكإنما تحالف البشر والطبيعة ضدها، فثقل عليها كثيراً، واضطرت لأن تقبع في سجن نفسها، مكبلة اليدين بأفكارها، وتذعن لخواطرها عاكفة على آلامها، لما ينقصها من القوة والثبات.

- خالتي، وعدت عمتى نازك بزيارتها، ستفرح كثيراً، كذلك جدتي، فمنذ وفاة جدى لم نزورهما إلا مرتين.

- عزيزتى، دعيها ليوم آخر.

- كما تشائين.

- ليلى، هل تعلم نازك أن والدها توفي بالسرطان؟

- نعم، فهي من كانت تشتري له الأدوية. ولكن خالتي، ألا تعرفين أنها أيضاً مصابة بذات المرض؟

- نعم لقد عرفت، عافاها الله، ولكن حسبما علمت أن المرض في بدايته، ويقولون أنها ستتماثل للشفاء قريباً.

- صحيح، ولكن قد تضطر لتأجيل دراستها في الجامعة.

- إنه القدر.

- ولكن لماذا البعض فقط؟!

– عزيزتي، هناك من يبتلى بدينه، وهناك من يبتلى بأهله، أو ماله، أو صحته، أو حبه. هل سمعت يوماً بالحب المسرطن؟.

– لم أسمع.

– وأدعو أن لا تسمعيهِ.

– لكنني أريد أن أعرف.

– حبيبتي، حتماً سمعت بكلمة الحب، إنها من أكثر الكلمات عبثاً بعقول العاشقين. وأكثرها ثقلاً على قلوبهم، تغيير مسار أقدارهم. أحياناً يستغلها أحدهم لغاية خبيثة في نفسه، أو قد يتغير الأمير العاشق ويترك عشيقته الأميرة في منتصف الطريق، تائهة بين أنين القلب وإنحدار العمر، فتتكسر أعمدة مملكة الحب، وينهار قصر الأحلام ليبني ذلك الحبيب قصراً جديداً لأميرة أخرى على أنقاض القصر المنهار، هذا ما يسمى بالحب المسرطن.

– سمعت ذات مرة، أن الحياة ما هي إلا إيجاد التوازن بين أمرين أحلاهما مر، وقد نفشل أحياناً في تحقيق التوازن، لبشاعة تعامل الطرف الآخر.

– أحسنت عزيزتي وصف دقيق جداً، لقد كبرتي وكبر عقلك.

– وقد تعلمت أيضاً، أن الحكمة كالدواء، لابد أن نتداوى بها عند الحاجة، بمقادير متوازنة، فإن تجرعناها دفعة واحدة أماتتنا.

فإحتضنتها طويلاً وقبلت رأسها، تضحك بقلبها وتبكي بعينيها ...

***

في المساء عاد شاكر مبكراً، ولاحظ علامات الإنكسار ظاهرة على وجه زوجته، فاستفسر؟، وجاءه الرد القاسي.

– أحبك يا شاكر، لكنك لم تعد الأمان الذي التجئ إليه كما في السابق، بل أصبحتَ الرعب الذي أفرُّ منه. كم غريب أمرك أيها الحب!، كم غريب أمرك أيها الحب!، فإننا نجد الملجأ والفرار في الشخص نفسه.

طلب منها الخروج للحديقة؛ فهناك شيئاً مهماً عليهما مناقشته، شئ متعلق بحياتهما الزوجية، ومستقبلهما. فإنتابها شعور بأنه يخونها مع فتاة، وسيصارحها بذلك ثم سيتركها، أو شيئاً من هذا القبيل، تصورت أن حبهما تحول إلى حب مسرطن؛ فتاهت بين التحليل والتعليل والتأويل، دون أن تدرك أن الأفكار السلبية تجذب المزيد من مثيلاتها، ومن ثم التصرف بسلبية، فخلق واقعٍ سلبي. إنه بإختصار قانون الجذب. فلم تكن تفهمه. ولم تدرك أن هناك قاعدة في علم النفس تقول: ستتقن ما تمارسه يومياً بكفاءة في مجمل حياتك، فإنك ستقلق لأتفه الأشياء، فتمارس القلق؛ لذا لتتقن راحة البال، مارس الطمأنينة، ولتتقن سكينة القلب، مارس التفاؤل، ولتنعم بالأمان، مارس حسن الظن. نعم طبقت تلك القاعدة ولكن بوجهها السلبي، فكان عليها أن تتوقع الأفضل وتحضر نفسها للأسوء، إلا أنها فعلت العكس تماماً.

جلسا تحت شجرة تين وارفة الظلال، تنتصف الحديقة الواسعة النظرة، التي تملؤها أشجار من أصناف وأحجام مختلفة، زهور من كل صنف ولون على حافاتها، تؤسر الناظر

وتتراقص رائحتها بدلال عندما تلامس نسمات هواء عليل يهب في المساء، ونافورة ماء في إحدى زواياها البعيدة، تحدث شرشرة، تسر المستمع عندما تمتزج بزقزقات العصافير، التي تتراقص على أغصان الأشجار وتتشاجر للظفر بثمارها.

– أتعلمين أنني أحبك كثيراً، وأننا عانينا معاً الكثير كي نبني عائلة سعيدة ونمنع حبنا من الإنهيار، ونجحنا في ذلك، ولا أريد أن تذهب كل تضحياتنا سدى، وهباءاً منثوراً. ولكن لديَّ رغبة شديدة في أن يكون لدي طفل، وتَبقين أنتِ أميرتي، والفخ الذي لم أنخدع فيه أبداً.

تاهت بين هذا وذاك، بين الإعتراف بحبها، والخضوع لأمر الواقع، بين الرثاء على نفسها والعطف على زوجها. فلم تطل التفكير، ولم تتردد. بل أسرعت إلى معرفة إلى أي قبلة يحج قلبه.

– لو كان الأمر بيدي لحققت أمنيتك، ومنحتك طفلاً، بل أطفالاً، ولكن هل هناك حل آخر؟.

فكانت تحاول نزع كلمات منه؛ لأنها كانت تشك في الأمر، بل كانت متيقنة منه؛ لذا لم تنقب عن جواب شافٍ، ولم تحاول مسك رأس الخيط لتفك طلاسم اللغز، ولم تفكر في الخروج من المأزق بأقل الخسائر، بل حاولت كسر الجرة وسكب الزيت على النار، كمحاولة لمعرفة ما يجري أو إثبات ما يجول في خاطرها، بأقصر الطرق الممكنة، حتى وإن كان على حسابها وحساب أُسرتها.

وكانت الكلمات الأخيرة فرصة ليفاتحها شاكر بحبه لسوزان، الفتاة اليتيمة التي نزحت مع عائلتها من منطقة أخرى،

وتعمل في منظمة دولية، ويكنّان لبعضهما مشاعر الحب، وكانا يلتقيان كثيراً أثناء العمل، وقد وعدها شاكر بالزواج بعدما يقنع زوجته، رغم ما بينهما من فارق في العمر، ولكن تلاقي الثقافات ساهمت في تقريب مساحة التفاهيم النسبي؛ إذ كانا ينشدان التحرر من الأعراف المجتمعية، دون أن يتبنيا مشروعاً فكرياً جلياً أو آيديولوجية واضحة المعالم. ولكنها حسب اعتراف شاكر فيما بعد، جعلته بملامحها الطفولية، وجرءتها وعطرها الفواح، مراهقاً، أو يتصرف كمراهق تائه؛ فمنحته آمالاً من السراب، وأحلاماً وردية من الضباب.

– سأمنحك ثلاثة أشهر فقط لا غير، إن لم تحملي بطفلٍ، سأضطر لأن أتزوج بأخرى، رغم أنني لا أريد أبداً أن أنفصلَ عنك. فأنت حبي الأول، ومصدر سعادتي وسروري، وكم هي رائعة علاقتنا التي قلما وجدنا فيها كلمة «أحبُك أو أفديك» لكننا وجدنا فيها كل شيء يُثبت ذلك.

فشعرت أنه كَلفَ بها تكلفاً، ستنحل على إثره الأواصر العائلية، وتنفك الصِلات الزوجية، لذا بادرت بتذكيره:

– ولكن تذكّر توسلاتك لأبي، كي يوافق على زواجنا، وكم عانيتُ كي أرضي أمي لتفاتح أبي، وتذكر ما عانيناه أنا وأمي من ضرب وحرمان حتى استطعنا من إقناعه.

– لن أنساه أبداً، ولكن أرغب أن أكون أباً.

– ولا تنس وعودك التي قطعتها لي، بأنك لن تتخل عني أبداً مهما كانت الظروف.

– نعم لم أتخلى عنك في أقسى الظروف، ولكن أرغب أن أكون أباً.

– ولا تنس تضحياتي، عندما عجزتَ عن توفير لقمة العيش، وما عانيناه من مرارته.

– لم أنس ذلك، ولكن أرغب أن أكون أباً.

لم تفكر كثيراً؛ لأنها أحست بذلك منذ البداية؛ فشعرت أن جميع محاولاتها ستذهب سدى، وتضحياتها ستأخذها الرياح، لذا كست وجنتيها حمر الإنفعال.

– لا مشكلة لدي، ولكن بشرط، أن لا أبقى هنا، فدعني أرجع إلى أهلي وأعيش معهم في كندا، عندئذ إفعل ما شئت، ولا تنتظر الحمل.

لم يصدق شاكر ما وصل إلى آذانه، فقد سمع ما كان يتمنى سماعه، دون أي خسارة تذكر، فالمهم أنه ظفر بحبيبته؛ لذا قام وقبّل جبينها الواسع الرطب الذي يعلو ملامح طفلة حالمة، كبرت لتكون شابة طموحة، ثم باتت إمرأة مكافحة أتعبها الزمن.

– أنت حبي الأول، ولن أتركك، ولكن أرغب في أن أكون أباً، وقد جرّبنا جميع الوسائل والسبل دون جدوى، وإلا لما فكرت بالزواج عليكِ.

شعر أنها لم تعد تسمع كلماته، ولا تلقي لها بالاً. فتركها وحيدة في الحديقة التي اعتادت الإلتجاء إليها، كعالم يأوي آلامها وأحزانها، سعادتها وسرورها. فتحولت تلك الحديقة الساحرة إلى

غابة أشباح موحشة، لكنها لفرط الصدمة لم تستطيع حتى الهروب بل آثرت البقاء كي تعذب نفسها، بدلاً من دخول المنزل فيعذبها شاكر بأكاذيبه وكلامه المعسول الممزوج سماً.

فهمست في نفسها قائلة: أفهمت يا عزيزتي؟!... هذا هو الحب المسرطن.

****

دخل شاكر من خلال باب المدخل الكبير الصالون المزين بلوحات زيتية رسمت عليها صور بديعة بذوق رفيع بمنتهى الدقة، وجلس على أقرب كرسي، ودفن جسده الضخم بعض الشئ فيه، ومد رجليه قدر ما استطاع وجال بعينيه الزائغتين أنحاء الصالون المفروش بأرقى أنواع الأثاث والتحف الغالية الثمن، المزين بها ليخفي زيفه وحشته وإفتقاره إلى المحبة، وزفّ الخبر السار لسوزان، بعدما ترك زوجته في الحديقة وحيدة مع أحزانها وتأوهاتها، لكن يبدو أن سوزان لم تفرح كثيراً، لم تفرح من قلبها، بل إكتفت بإبتسامة خبيثة؛ لأنها شعرت أن خطتها بدأت تثمر، وأنها فى الإتجاه الصحيح وفق بوصلتها الشخصية، فالحب بالنسبة لها خوارزمية سخيفة، معادلة تافهة، شيفرة غير معروفة؛ فحتى نصف اسمها لا يتناسب وشخصيتها المؤلفة من طينة عجيبة، فـ (سوز) باللغة الكوردية تعني الوعد والعهد، لذا لم تكن على عهدها ووعدها أبداً؛ إذ كانت بعد ذلك تتهرب منه بحجج واهية، تجعل بابها شبه مفتوح، ترفض الزواج منه وتظهر له التلطف والود، فأثارت تساؤلات كثيرة لدى شاكر،

بتحول ودادها المفاجئ، فأحس بفتور في علاقتهما ودون معرفة الأسباب. حاول إكراهها عله يستطيع تقويم سلوكها، لكنها لم تذعن للأمر كارهة أياه، وعاطفته تجاهها لم تزدها إلا نفوراً وابتعاداً، ولفرط ولعه بها، أصيب بخيبة أمل، وملل، وحالة من القلق والكآبة، ومن ثم الإنهيار النفسي.

أيام بل شهور مضت، وشاكر في دوامة من المشاكل، وحالته النفسية في تدهور مستمر جرّاء تصرفات سوزان الحمقاء، فبدأت تتسلط عليه، وتخرج في سفرات ونزهات مع زملائها في العمل، دون علمه، مما أدى إلى فتور عاطفي بينهما، ومشاجراتها المستمرة مع عائلتها، ومع شاكر أيضاً، ومطالبته بمبالغ مالية، حتى أصبحت جيوبه فارغة إلا من الهواء.

فأثار كل ذلك شكوك شاكر، إلا أنه لم يكن يرفض لها طلباً، ويسرع إليها دون تردد، بل وحتى دون تفكير في كثير من الحالات. إلا أن كل ذلك لم يكن يرضي جنونها؛ لأنها قد ولَّهته بدلالها، وغنجها، ورخاوة حركات يديها، ونقاء نبرة صوتها، وتحررها وثقافتها، لذلك فقد وله بها ولها.

أما من جانب زوجته، فاستقبالها له، حتى في الساعات المتأخرة جداً من الليل، والسؤال الدائم عنه وعن أحواله وعمله، وتعاطفها معه وجبر خاطره، والإهتمام اللائق به، ومراعاة ظروفه النفسية وحتى المالية، رغم فتور العلاقة بينهما من جانب شاكر، الذي لم يكن يعر لها أي إهتمام، ويهمل واجباته المنزلية، وكان وجوده في البيت لساعات محدودة فقط، دون أن تعلم زوجته أين يذهب

ومع من يقضي أوقاته. ولا يكاد يجتمعان إلا على مائدة الإفطار الكئيبة، بغموض في وجهها، وألغاز في وجه شاكر، مع شحة في الإشفاق والحنين، صمت مملح، أحاديث نادرة، متقطعة، جملاً غير مفيدة، ملتوية وغامضة بعض الشيء أو دالة على أكثر من معنى.

راجع شاكر معالجين نفسيين، دون أدنى فارق إيجابي في حالته؛ لذا لجأ إلى صديق له، يستشيره في حالته ويطلب منه مساعدته، وكان يدّعي السعي لعودة حياته الأسرية إلى سابق عهدها، بعدما تعثرت وكادت أن تنهار. إلا أنه كان يسعى لترميم علاقته بسوزان، حتى وإن كان على حسابه وحساب عائلته.

فزاره في الجامعة دون موعد مسبق، وانتظره في مكتبه طويلاً، دون أن يحظى بفرصة التطرق إلى مشكلته. فقط، سلامٌ وترحيبٌ وسؤالٌ عن الأحوال، ليس إلا. لأنه كان مشغولاً بإبداء المشورة لبعض طلبته، ومنهم كريم، الشاب الوسيم، ذي الشامة السوداء على خده الأيمن، وجبهةٍ عريضة، وحاجبين متباعدين فوق عينيه البنيتين، يبذل الكثير من الجهد كي يبدو هادئاً ودوداً، وهو يروى قصة تدهور علاقاته مع والديه؛ لأنه أحب فتاة منفتحة مرفوضة لدى عائلته المحافظة، وكان في قمة غضبه، ومستعد لهجرهم والعودة إلى المنطقة الساخنة التي نزح منها.

فنصحه الدكتور وان – هكذا كانوا ينادونه –، وشاكر يتظاهر بعدم الإهتمام بالموضوع، إلا أنه كان ينصت إليه بإهتمام شديد؛ لتشابهٍ كبيرٍ بين قصته وقصة كريم في أبعاد مختلفة، عله يستفيد منها. بما أنه لم يحظَ بفرصة التحدث إلى صديقه على إنفراد. ومن ثم فإن حدسه كان يخبره بشيء لم يكن يعرفه.

– كريم، هل جربت النظر إلى صورتك في الماء وهو يغلي؟... لا أظن ذلك.

– لا دكتور، لم أجرب، ولكنني لا أتصور ذلك؛ لأن الماء في حالة الغليان لا تعكس الصورة بشكل جيد.

– والآن أنت في مرحلة الغليان، فحتماً لا تستطيع التصرف بحكمة وعقلانية، لأن الأمور مشوشة ومشوهة لديك. ويجب أن تعرف أنك ولدت من أبوين يحبانك، وتعبا عليك. أمن المعقول أن تكون سبباً لشقائهما؟! حاول التحدث معهما، لعلك تصل إلى حل. إن كانا على حق، فجانبهما، وإن كان مجرد موقف عاطفي، فستستطيع إقناعهما؛ لأنك مزود بسلاح الحب، وهو سلاح ذو تأثير قوي. إن كنت تحبها، فستفعل المستحيل لإقناع عائلتك، وإن كانت حبيبتك تحبك بصدقٍ، فستعمل المستحيل لتكون مقبولة لدى العائلة. واعلم إن الأرواح لا تتلاقى إلا على صفاءِ نواياها؛ فانطلق، أمامك الكثير لتقوم به. ولكن قبل ذلك تلذذ بأكلات الوالدة، لأنك ستأكل أشياء غريبة باسماء مألوفة.

التفت إلى شاكر، الذي حسب أنه هو المقصود بالكلام، ثم قال: قبل أن تذهب يجب أن تعرف أن هناك مبدأً راسخاً في الحياة نسميه تبادل الأدوار لفهم الآخرين. فلتفهم الآخرين، وتحس بهم، وتشعر بما يشعرون، وتعرف مواقفهم ومصالحهم واحتياجاتهم، جرب تبادل الأدوار معهم، وضع نفسك مكانهم، وأنظر إلى المسألة من زاويتهم. الحق ليس معك دائماً، فأحياناً تتقاسم الحق معهم، أي أنك محق نسبياً، وهم كذلك. وحينئذ

ستعرف إلى أي مدى جانبت الحق، وأين موقعك من الخطأ والصواب.

ثم نظر إلى ساعته اليدوية واعتذر من شاكر، وطلب منه البقاء أو الإلتقاء في وقت آخر؛ لأنه على موعد مع حالة مستعصية في مركز التأهيل النفسي بعد ربع ساعة، فاتفقا على مكان وزمان محددين.

****

أمسك الدكتور وان بقلمه وبدأ برسم إشارات غير مفهومة، منصتاً بكل جوارحه لـ وار، الشاب ذي الثلاث والعشرين من عمره، قصير القامة بعض الشئ، أبيض البشرة، مدبب الذقن، منكسر العينين، يعلوهما حاجبين مقطبين، إحداهما مقطوع من طرفها، جالس على طرف الكرسي يتكلم بصوت خافت، وهو يصف حالته بالمستعصية؛ لأنه حاول الإنتحار أكثر من مرة.

فيراقبه الدكتور وان بفضول ويحلل طريقة جلوسه وباقي تصرفاته. وحركة رجليه توحي بما يشعر به، فمن قواعد لغة الجسد أن الجلوس على حافة الكرسي دليل على التوتر، وأما لصق الكاحلين أثناء الجلوس فيشير إلى حالة من القلق. لذا بدا وكأنه تخلى عن فكرة الإنتحار، فحاول تشجيعه ليحب الحياة ويهاب الموت.

– لا تستعجل، ستفعلها، نعم ستفعلها في أية لحظة، ستعانق الموت ألماً وهرباً من الحياة، حينها لن تكون مجبراً على الاستيقاظ ثانيةً، ستنام للأبد، نعم للأبد، لن تزعجك الكوابيس، ولا الأفكار

أبداً، لن تلاحقك وصمة العار، ولن تكون مرغماً على الأكل لترضي والدتك، ستتحرر من تلك المهازل، فلم تبق لك سوى بضع خطوات، قد تموت في أية لحظة، فهل لديك ضمان؟؛ لذا لا تستعجل بإنهاء حياتك إنتحاراً، فهي قد تنتهي في أية لحظة. بل واجه الحياة بمصاعبها، ومتاعبها، إن كنت شجاعاً. فليس هناك أية إثارة في الإنتحار، لأنك أنت تصنع الأحداث بنفسك، الشنق، أقراص الإسبيرين، محلول الديتول، النار، السكين الحاد، البندقية، كلها وعلى الإنترنيت مباشرة (لايف). فليس فيها ما يستحق الإثارة، مجرد تعاطف، وإشفاق ثم النسيان للأبد.

عزيزي الإثارة الحقيقية مع الموت، هو أن تتحدى الموت والحياة معاً، ومن ثم فإن متَّ، فلن يبقى جزء من جسدك ليكون شاهداً على هزيمتك، بل ستتظاهر بالإنتصار، وستتذوق لذته، والموت عندئذٍ سيكون أنيقاً، راقياً، يليق بك.

- دكتور يكفي الحديث عن الموت، فإنني أهابه.

- أتخافه؟!

- بدأت بالخوف منه.

- عزيزي، لا تخاف الموت، لأنك ربما ستشتهيه ألف مرة كي يأتي ويخلصك من أنياب الحياة، بل يجب أن تخاف من الحياة، وتتحداها.

- ما لقيته من الحياة، لا أتصور أن ألاقيه من الموت، لقد خانني أعز أصدقائي، وغدرت بي الإنسانة التي كنت أظنها ستكون شريكتي.

– لست أول شخص، ولن تكون آخرهم، والإنتحار لن يحل مشكلتك، كن قوياً وواجه الحياة، وتعلم منها. فلدي طالبة مصابة بالسرطان، والموت يطرق بابها كل لحظة، لكنها تحب الحياة وتجاهد كي تستمتع بكل لحظة من حياتها.

عندئذٍ، إطمأن وار؛ فتنفس بعمق، وأفرغ ما في جعبته من مخاوف، وبدأ يحل عقدته النفسية، فارتاح قليلاً؛ لذا إستنتج وان أنه قَبلَ التخلص من عقدة الموت، وبدأ ينصت إليه وبشغف.

– أريدك أن ترسم لي صورة.

– ماذا تريد أن أرسم؟

– ما يجول في خاطرك.

– فرسم دائرتين متلاصقتين في كل منهما دائرتين صغيرتين، وحولهما أشكالاً غير متناسقة، وخطوطاً تدور حول تلك الدوائر، مُشَكلةِ دوامة لا متناهية تتماهى في المطلق.

دقق وان في الرسم لبعض الوقت (إنها الخيانة ودفع ثمنها غالياً) ودون ملاحظاته في التقرير، ووضعه جانباً، تنفس مرة أو مرتين بعمق ورفع رأسه، ونظر إلى وار نظرة حادة، فلاحظ شعاعاً حاداً في عينيه العميقتين.

– صديقي، تكمن قوتك الحقيقية في معالجة ألمك بنفسك. فلا يضاهيها قوة في الكون، أن تحل مشاكلك بنفسك، وأن لا تحتاج إلى أحدٍ، إنها ليست مسألة طبيعية، فقد جاءت بعد تجاهل كل محاولات الإستغاثة من قبل الآخرين، خاصة من قبل

الأحبة، أو الذين كنا نتوقع منهم الكثير، والذين فعلنا لهم الكثير، فبعد أن تخلوا عنّا، لن نتخل نحن عن أنفسنا، بل سنعالج آلامنا وجروحنا بأنفسنا، نعم بأنفسنا دون الإعتماد على غيرنا. إنها القوة الحقيقية، وبعدئذ سننهض أقوى من ذي قبل، وسنتعلم كيفية مداواة جروحنا، ومعالجة آلامنا ومشاكلنا وتذليل العقبات التي تقف في طريقنا بين حين وآخر، وسنحقق جميع أحلامنا، حتى أمنياتنا التي لم نكن نؤمن بها، ستتحقق رغماً عنها.

وكان وان أثناء النطق بتلك الكلمات التحفيزية، يلاحظ ردة فعل وار، التي كانت متجاوبة. وكان يتلقاها بشغف، وهي علامة إيجابية على تجاوب المضطرب للعلاج.

- هل تجيد الكتابة؟!

- نعم أحياناً أعبر عن خواطري ومعاناتي بالكتابة.

- حسناً، أريد منك أن تكتب قصة قصيرة تتحدث فيها عن طفولتك، على أن تتألف من جزئين، جزء يبكيني والآخر يضحكني.

- رغم غرابة الموضوع، وغباوته، غداً ستكون القصة جاهزة.

وعندها حاول وان الإنتقال به إلى المستوى الرابع، أي الثقة التامة بالنفس والإعتماد عليها.

- إن لم يكن لديك سؤال أو إستفسار، سأتركك، على أن تعدني بالإطلاع على التطورات. وأتطلع في أن أراك في الجلسة المقبلة أقوى من الآن، فقد كنت قوياً بما فيه الكفاية لتصمد

أمام محاولات الإنتحار ومواجهة الموت، وفي الجلسة المقبلة يجب أن تثبت قوتك في مواجهة الحياة. ولا تتردد الإتصال بي في أي وقت... وصافحه بقوة، فوجده يمسك يده بقوة أيضاً، وهو من دلائل صحة توقعاته.

في اليوم التالي، إتصل وان بالمسؤول عن حالة وار، الذي طمأنه بأن هناك تطوراً مذهلاً في حالته وقد يتماثل سريعاً للشفاء التام، وفق منهج دراسة الحالة المستخدمة من قبل المركز، وبدأ بوصف حالته بشكل دقيق، وبما أنه لم يكن يهتم بالمعايير والمقاييس، فشكره، وقال: هل من مانع أن أتصل به مباشرة؟ فإتصل به بعد التأكد من عدم وجود ممانعة من الشخص المسؤول، واطمأن عليه وطمأنه، وحفّزه ونصحه بأن يحاول قدر الإمكان الإبتعاد عن الفراغ، خصوصاً الفراغ الروحي.

****

شعور شاكر بالفراغ الروحى يزداد يوماً بعد يوم، لذا طلب لقاء صديقه، وبعد مقدمات قصيرة دخلا صلب الموضوع فنصحه فلسفياً، ولكن شاكر كان على قدر من الثقافة ليفهمها بشكل جيد.

- إبحث عن مروجك السرية الخاصة، فقد تكون متوارية بين ثناياك المظلمة، حينها ستجد مفاتيح إنعتاقك من عقد المشاعر الدنيا القابعة في أعماقك، كتأنيب الضمير ووصم العار وتحقير الذات والخوف من المستقبل المجهول. حينئذٍ ستبدأ رحلتك الشيقة نحو السمو؛ للتخلص من الكيان اللاواعي الذي

يتغذى عليك ويهدر جهودك. فالأمر يا صديقي العزيز في غاية الخطورة دون أن تدرك أبداً؛ لأن التخلص من ذلك الجزء السوداوي المظلم من شخصيتك، سيشجعك ويحفزك للإرتقاءِ الروحي. ولكن الأمر ليس بالبساطة التي نتصورها؛ لأنه لنْ يستسلم بسهولة، بل سيقاوم وبشدة ليبقى متطفلاً عليك، سيضع العراقيل والعقبات في طريقك، وسيستميت محاولاً عدم تخطيك تلك المرحلة، بتصور راسخ منك، ما معناه أنا لا أستحق الحياة، أو لا أستحق تلك الحياة، وهي مرحلة حرجة جداً، بل وحاسمة؛ لأنها مرحلة الحياة أو الموت، البقاء أو الإرتقاء، الإنحطاط أو الرقي؛ لذا راقب ذاتك جيداً، وتدارك الموقف سريعاً، فإما أن ترتقي وتكمل حياتك ورحلتك كما تشاء، أو كما خططت لها ورسمتها، أو ستسقط في قاع وحل المشاعر السفلية، والمهاوي الإجتماعية. عرفتك قوياً، واجتزت حياة صعبة جداً، في جميع مراحل عمرك، فمن هي سوزان؟ لتجعلها في الحسبان، وتحسب لها ألف حساب قبل أن تخطو خطوة... ويبدو أن وان لم يكن يعرفها جيداً؛ لذا قام شاكر منتفضاً.

– لا تستهن بقدرات فتاة متحررة تدرك كيف ومتى تكون أقوى من الرجال، ومتى تكون في قمة أنوثتها.

عبارة يبدو أنها مستعارة، ولكنه وصفٌ دقيقٌ لفتاةٍ مكّارةٍ لعوبة، شديدة الكيد، ضعف أمام شخصيتها شاكر، ومستعدة لأنْ تحرق الأخضر واليابس كي تنعم بلحظة سعادة، وكان شاكر يحبها لأنها مثقفة عكس زوجته، فيبدو أنه وقع في فخ إطراء ذكي لذا فقد بدا الموقف صعباً للغاية.

إلا أن وان كان من الأشخاص الذين يملكون قلباً مليئاً بالمحبة، وأياديهم ممدودة دائماً. كما وصفهم مولانا جلال الدين الرومي.

- لا عليك يا صديقي، لن أتركك وحدك، سأكون إلى جانبك. وأثق، بل وكلي أمل، من أنك ستتخطى هذه المرحلة الحرجة، وستصل إلى بر الأمان، وتقف على رجليك قوياً، بل أقوى من ذي قبل، لانك لا تعاني من شئ سوى بعض الظلالات النفسية. ولكن عليك أن تراقب العراقيل التي تعيق التقدم في حياتك المادية والروحية، النفسية والإجتماعية؛ لذا عليك أن تغوص في أعماق ذاتك، الى المناطق المعتمة، لتصل إلى ظلماتها، وتنتزع بذرة عدم الإستحقاق، ثم تتصالح مع نفسك وتحبها بصدق وتتقبلها كما هي، بما فيها من تناقضات، من أشياء جميلة وقبيحة، جيدة وسيئة. فكل ذلك سينعكس على حياتك الشخصية، والعائلية والإجتماعية، وستتخلص من كل ما يعيق تقدمك، وستكره هذه المرحلة. حينها عليك إعتبار ما حصل لك بمثابة إشارة كونية وتجربة إجتماعية ولمحة روحية، كفرصة لم يحصل عليها كثير من الناس، أو مروا بها دون الإستفادة منها. فرصة لم تكن لتحصل عليها لو لم تمر بتلك التجربة.

عدّل وان جلسته، وأعقب قائلاً: فالفرص يا صديقي كثيرة ومتنوعة، ولكن القليل منها تُقتنص، أو قليلٌ من الناس يقتنصها، فكل ما يحصل لنا، يُحَضِّرنا ويهيؤنا لأمور رائعة ومواقف جميلة خُلقْنا من أجلها؛ فلكل منا وظيفته المحددة في الحياة، إن لم نقم بها، حتماً سيقوم بها آخرون، ولكن بطريقتهم الخاصة.

– هل تقصد أن زوجتي لم تقم بوظيفتها؟، وأن سوزان ستقوم بتلك الوظيفة بطريقتها الخاصة... قالها فَرِحاً.

– لم أقصد ذلك أبداً، ولكن يبدو أنك مهوس بها حد النخاع، إنها حقاً أنتزعت عقلك... قالها ضاحكاً.

طلب وان من شاكر إن لم يكن لديه مانع، أن يريه بعض صوره مع سوزان، ففتح ملفاً خاصاً في هاتفه قد حفظ فيه صوره معها في مناسبات مختلفة. صوراً ثنائية وجماعية كان يتصبر بها، عرفها وان في الحال، إنها إبنة عم كريم، ولاحظ أن شاكراً في جميع الصور تقريباً كان قريباً من سوزان، ويبدو أنه في بعضها قد استغل الموقف فظهر ملتصقاً بها تقريباً، وهذه الحالة تسمى فى علم النفس بداء التملك، ومن أعراضها: الرغبة العارمة في عزل الحبيب لمحبوبته عمّن حولها، ومتابعة تحركاتها في كل لحظة وحين، والإحتفاظ بها لنفسه فقط؛ لذا فقد شخّص وان حالة شاكر له بالتفصيل الممل.

– وهناك شيء آخر يجب أن تعلمه، وهو: إذا كنت ممن يستأنف عملاً دون إنهائه، فهي إشارة مفادها أن هناك أموراً ترسخت في أعماقك المظلمة، تركتها عالقة دون إستكمالٍ وإتمام، لم تحررها، ولم تتركها، بل سمحت لها أن تستقر في تلك الأعماق. فكن يقظاً حيالها، ومن أمثلتها الفراغ العاطفي والكبت الجنسي، وعدم القيام بما يتطلب من أفعال وأمور في مرحلة عمرية معينة، سيجبرنا أو يدفعنا للقيام بها في مرحلة عمرية أخرى، وهي ليست تنظيرات نظرية، بل أقولها عن مشاهدات وملاحظات كثيرة لأشخاص مقربين.

يبدو أن شاكر كان مبعثر الأفكار، لذا تجاهل بعض ما سمع وركز على جمل دون غيرها.

- هل تعني التعويض النفسي؟

- نعم بالضبط، هل سمعت بأحلام اليقظة؟

- نعم كثيراً.

- إنك يا صديق تجعل من نفسك بطل من أبطالها، فمن جهة تحاول الهروب من واقع مؤلم، ومن ناحية أخرى تحاول ملئ فراغ معرفي أو فكري. ولكن بالنسبة لك الأمر مختلف قليلاً، فبعض شخصيات أحلامك أشخاص حقيقيون، تتفاعل معهم في حياتك وتتجاوب معك أحياناً.

- هل هو مرض نفسي؟

- لا تخف، ليس مرضاً نفسياً، بل عقدة نفسية يجب التخلص منها، وإلا تحول إلى قلق إيجابي، إن لم يكن مصاحباً بالأفكار التدميرية القهرية... إنها مسألة نفسية ستؤدي بنا إلى متاهات غامضة. لذا يجب أن نعود إلى المشكلة الأساسية المتعلقة بباطن نفسك.

ويبدو أن شاكراً قد فهم فلسفة الحياة تلك، فإستفسر صديقه عن حبه لزوجته، وحب زوجته له، وحبه لسوزان، وحب سوزان له، فوصف له صديقه حالته مفصلاً.

- حبك لزوجتك وعائلتك وحب زوجتك لك، حب إعتيادي، حب خالص، حب سَلِمَ من أعاصير الحياة العاتية، ولكن الآخر

ليس إلا مرضاً نفسياً، مصلحة مؤقتة، وخطر مدمر، ولكنه إن لم يقتلك فسيجعلك أكثر قوة، ويعتمد ذلك على المناعة الذاتية ومساعدة محبيك. ويجب أن تعرف أيضاً أن التعلق هو فايروس أخطر من الكورونا فايروس. إلا أن شاكراً رغم إداركه لما يحصل له، وما يحصل حوله، فيبدو أنه كان غارقاً في بحر لجي؛ برفقة سوزان، لذا تنهد بحرقة.

– تبا للغربة التي أعيشها، تباً لإشتياقي إليك، لا أحكام لها ولا قواعد، لا يملك استئذاناً ولا يعرف وقتاً، ولا يتقن أبجدية، يأتيني في كل حين، نعم في كل حين، ليسرقني من كل شي إليك. فلا دواء للعشاق إلا مزيداً من العشق، حتى يغرقوا في محيط عشقهم، ملتهين بآلامهم.

فحاول وان إبعاده عن الحالة العاطفية وخلق بيئة للتفكير العقلاني.

– إعلم جيداً يا صديقي، إن كنت في علاقة حب حقيقية، سيحبك الطرف الآخر حتماً كما أنت، على حقيقتك وبكل جنونك وحماقاتك، بكل سلبياتك وأخطائك، يحبك حباً جماً دون مقابل، ودون أن تتوقع منك شيئاً، وستساندك وتساعدك وتدعمك، تريد أن تجدك مبتسماً؛ لأنها ترى ذاتها في عينيك. فأنت يا صديقي محظوظ جداً بها؛ لذا حافظ عليها، أو أتركها حال سبيلها.

وكأنه يقول له: إرجع إلى زوجتك وعائلتك، التي إحتضنتك رغم كل تصرفاتك وسلوكياتك الخاطئة. واترك هذا الذي أسميته حباً، الحب الأحمق، الحب الطفيلي، الذي يتغذى عليك،

ويمتص كل طاقاتك كي لا تتوهج وتستمتع بالحياة، ودون أي إعتبار لما تسميه حباً، أو عشقاً. فإني لا أجد له إسماً غير الإستغلال، أو الإستعباد، أو الجنون، والإنتحار العاطفي. ثم قال من عجائب اللغة العربية، أن إمرأة: مفردة وليس لها جمع، وإنك لن تحظى إلا بواحدة فقط في حياتك، لا مثيل لها أبداً. وأما النساء: فجمعٌ وليس لها مفرد، وكأنك لن تشبع منها أبداً، مهما حاولت؟ يا صديقي، حتى اللغة غير قادرة على تطبيق قواعدها على الأنثى.

– ولكن هناك شئ أريد أن أطلعك عليه، وهو أنني وسوزان على قدر كبير من الثقافة، بعكس زوجتي التي لم تكمل حتى تعليمها الإعدادي، ولم تقرأ أو تطالع كتاباً واحداً منذ أن تركت الدراسة.

– شاكر، عليك أن تبعد ثقافتك عن بيئتك الشخصية، ولا تتعالى على عائلتك وزوجتك ببعض الحكم والإقتباسات، فأغلب ما خط في الكتب، لا يؤمن بها حتى مؤلفوها، ومن ثم ما فائدة الثقافة إن لم تنر طريقنا، ما لم تغير سلوكنا، ما لم تترك فينا بصماتها الإيجابية، ويجب أن تعلم أن لكل منا أكثر من عالم، فلا تجعل كل من عالمك الشخصي وعالمك الأسري يتداخلان مع عوالمك الأخرى، بل يكملان بعضها البعض.

حالما إنتهى وان من جملته الأخيرة، دخل عليهما شاب في مقتبل العمر، بوجه مألوف الطلعة، غير غريب عن شاكر، فساوره إحساس غريب...

سلم عليهما، ثم قال: لن أخذ من وقتكما الكثير، فقط أردت السلام، وأشكرك دكتور على نصائحك، لقد ساعدتني في إقناع عائلتي، كذلك حبيبتي، فهي الآن خطيبتي وسنتزوج قريباً، وأنتما من المدعويين. وطلب الإذن منهما بالإنصراف، بعدما بارك له وان ولاحظ في عينيه نظرة المنتصرٍ، ثم التفت إلى شاكر وواصل حديثه معه.

- هل تتذكر هذا الشاب؟ إنه كريم، الذي جاء إليّ لأنصحه في أمر زواجه، إنه ابن عم سوزان.

فبدت علامات التعجب والغضب، والإرباك، على وجه شاكر، وأحس بشيء من عدم الإرتياح، وسرح بخياله بعيداً.

- وكيف تعرف ذلك؟

- جاء إليّ ذات مرة برفقتها ... لم أكن أعرف ذلك، إلا بعد ان رأيت صورها الآن.

- ولكن لا أعرف كيف عرفت زوجتى بأمرها.

- الحب دائماً يطفو فوق محيط الأسرار؛ فلابد أنك هلوست ذات مرة، أو هذيت، أو نطقت باسمها وأنت حالم!.

فسرح شاكر بعيداً مرة أخرى، وبدا كأنه يطير بأفكاره في محيط من الغيوم، إلا أن وان بدد غيوم أفكاره.

- شاكر، هل تعرف نفسك؟، هل تعرف من أنت حقاً؟ هل أنت راضٍ عن نفسك، وتصرفاتك، وسلوكك ومجمل حياتك؟، هل أنت محب لذاتك؟ هل أنت سعيد بنفسك؟ هل أنت في سعي

لتحررك؟ هل أنت مكتفٍ بوجودك وتتقبل ذاتك؟ هل لديك الشجاعة لتكون أنت كما أنت، بلا تمثيل ولا تزييف ولا تصنع؟. لست هنا لأقول لك هل أنت مخطئ أم صائب؟، أو لأبين لك الأسود من الأبيض؟، أو لأحدد أي الإتجاهين عليك أن تسلك؟، هذا ليس عملي، فالله تعالى يتولى ذلك، فهو يهديك دائماً إلى الصواب الذي يجب عليك أن تختاره من بين مجموعة من الخيارات، بناءً على الإشارات التي تصلك منه تعالى، على خلفية معرفتك، أصدقائك، معارفك، إيمانك، علاقاتك، معتقداتك، طقوسك اليومية، تدبرك، تفكيرك... الخ. فقط سأقول لك: كان قرارك غير صائب حين اندفعت بكامل عفويتك نحوها، فكان يتوجب أن تترك مسافة آمنة لتحمي نفسك، كخط للرجعة، فلا تضع كل ما تملك من البيض في سلة واحدة. لذا أتصور أنك وضعت نفسك في متاهة، وأخشى أن الحل الوحيد الآمن هو أن تعيش فيها، أو أن تتخذ قراراً جريئاً وتتحمل مسؤولية ما سيترتب عليها من آثار وعواقب.

يبدو أن شاكراً كان بالفعل في متاهة الأفكار المشتتة، يسرح في ذكرياته، لا ينصت إلى وان جيداً، فلم يتمكن من فهم ما يقوله إلا مقتطفات مبعثرة. لذا تجاهل الكثير مما سمعه.

- رغم إننا مستيقظون وبكامل وعينا وإدراكنا، لكن نبدو وكأننا نعيش في حلم، ما نحن فيه إلا إشباح باهتة. لا نملك شكلاً ثابتاً بل إننا في تغيّر مستمر؛ يغيرنا الأشخاص، الكلمات، المواقف، والأيام؛ فلسنا سوى ردّات أفعالٍ لكل ما يحدث حولنا

في هذه الحياة. مخاطباً نفسه؛ لأنه كان في دوامة مخيفة من الأفكار المتصارعة، كعاصفة وسط المحيط، إلا أن البوصلة الروحية التي أهداها له صديقه، والإحداثيات التي حددها له، قد وضعته في إتجاه يستطيع التحكم بمشاعره وأحاسيسه، وصنع قرار مناسبٍ لحياته، ولكن عليه التفكير لبعض الوقت كي يكون قراراً لا رجعة فيه، وأن يكون القرار نابعاً من القناعة التامة والتوازن فيما بين العواطف الجياشة، والعقلانية المطلوبة، ليضعه في الموقع الصحيح من نفسه ومحبوبته وعائلته ومجتمعه.

كان شاكر تائهاً في دوامة من التفكير العميق، يحاول التشبث بشيء ينقذه من تلك العاصفة الهوجاء من الآراء. وإذ بهاتفه يرن، إنها زوجته!، تسأل عن حاله كي تطمئن، فأحس بأنها أولى الإشارات، ثم تبلغه عن قرارها بعدم السفر بل البقاء إلى جانبه، مهما كان قراره، إذاً فهذه الإشارة الثانية.

في طريق العودة كان وان يسوق سيارته ببطئ، ويستمع إلى محاضرة في التنمية البشرية، ملخصها: خيط رفيع تفصل بين علاقة حقيقية «حب مطلق لا مشروط» وعلاقة مرَضية مبنية على امتصاص طاقة الآخر؛ فحفظها عن ظهر قلب، وكتبها في رسالة إلى صديقه شاكر، بعد وصوله الجامعة وقبل أن يدخل المحاضرة.

وكان يقول لخيال شاكر الذي بقي معه: إنك الآن في نفق مظلم. فاعلم أنه في الظلام المعتم تتسع حدقة العين كي تركز على ما تنظر إليه، لتتجلى لك الحقائق؛ لذا لا تخف من العتمة،

التي أظلمت حياتك بل سيطر عليها؛ فيزيل غشاوة عينيك، ولن تكون مضطراً لأن تنظر إلى الحياة بنصف عين، بل سترى الحياة بشكل أوضح.

وفي المحاضرة عرج عن الموضوع الأساسي إلى كورونا فايروس، وكيفية زيادة مناعة الجسم عن طريق تقنية قانون الجذب المثير للجدل، وعلم الآيزوتيريك الحديث النشأة، وذلك بعد أسئلة كثيرة طرحها الطلبة، ونظراتهم غير المطمئنة التي تبحث عن بارقة أمل، حتى وإن كانت من غير مختص.

فاستهل حديثه بالتقليل من خطورة الفايروس والمرض الذي يسببه، وكيفية التعامل معه، عن طريق تقنيات التنمية البشرية، وشرح لهم قانون الجذب، وكيفية استخدامه لتجنب المرض، والتعامل معه في حال الإصابة، وكيفية الإستفادة من علم الآيزوتيريك، لمعرفة الذات، ثم التطرق إلى مسألة مهمة جداً، لم ينتبه لها الكثيرون وخصوصاً الأطباء المعالجون، ألا وهي أن المرض إن أصاب شخصاً واشتد عليه، ومن ثم شفي منه، فهناك من ستبقى رئته متضررة وستؤثر عليه مدى الحياة، كذلك سيتضرر القلب، أو قد تظهر عليه آثار الأعراض الجانبية جرّاء العقاقير المستخدمة.

وكانت ناز في إحدى زوايا القاعة الدراسية، قد أسندت رأسها على كف يدها الأيمن وتنظر إليه، وما شده إليها نظراتها الخائبة الخائفة تارة، والمليئة بالأمل والتفاؤل والإعجاب تارة أخرى، معجبة بطريقة أستاذها في الربط بين المرض المخيف،

الذي عجزت أقوى دول العالم عن وضع حد نهائي له، أو معرفة طريقة لكيفية التعامل معه.

ورغم أنها كانت تحاول إخفاء نظراتها وإيماءات وجهها، إلا أن الأستاذ قد لاحظ ذهولها وحيرتها، وعرف أنها تاهت بين كل تلك الأفكار ، وبين مقتطفات من أفكارها وبعض الممارسات الخاطئة التي سادت في الآونة الأخيرة، فتركيز الأستاذ عليها زاد من حيرتها، وشرد ذهنها، وحاولت التركيز على بعض الأفكار الجديدة عن قانون الجذب وعلم الآيزوتيريك، دون جدوى، إذ شتتت فكرها أكثر، أصوات الطلبة في ممرات القسم، وبقع الرطوبة على جدران القاعة الدراسية ورائحتها، والستائر القماشية المهلهلة التي يتسرب منها شعاع من ضوء الشمس، فيشوش عليها شرائط العرض على اللوحة البيضاء، فتظهر عبارة (قانون الجذب/فانون الحدب)، وأما الآيزوتيريك وكأنها كلمة أخرى لا علاقة لها بالموضوع أبداً، كلمة مرت عليها عندما كانت تدرس مادة الكيمياء العضوية (حامض الكبريتيك، أو الأسيتيك، أو شيئاً مشابهاً.

إلا أنها لم تعتمد على البصر فقط، بل تحولت إلى السمع أيضاً، بعد إنقطاع ذهني لم يدم طويلاً؛ لأنها ولإيمانها المطلق بأن ما يقوله الأستاذ هي الحقيقة بعينها، وهذا حال المعجبين جميعاً، الذين لا يؤمنون بفكرة عصمة الذات الإنسانية، وعدم تقبل فكرة (كل إنسان خطاء)؛ فلم يطرق أسماعها فكرة (خير الخطائين التوابون)، والتخيل أن الله بذلك وبعظمته يحبك. فالخطأ صفة أساسية في الإنسان، بقصد أو دونه، ومبدأ التراجع

عن الخطأ وعدم تكراره عمداً أو التوبة عنه والتعلم منه، يجعل الإنسان في حالة إرتقاءٍ مستمر، مع الإحتفاظ بصفته الأساسية، كدافع رئيسي لديمومة الإرتقاء في الحياتين الدنيوية والأخروية.

رغم نباهتها، إلا أنه قد غاب عن ذهنها، فكرة أن الإنسان ليس بملائكة وليس بكائن شرير، بل يتوسطهما، فهو يوازن بين مصلحته ومصلحة غيره في المجتمع، وهذا التوازن يختلف في المقدار والمعيار والمقياس من مكان لآخر، ومن وقت لآخر، ومن شخص لآخر، ومن شيء لآخر، ومن مرحلة عمرية لأخرى؛ لذا فقد وهب الإنسان عقلاً ليتفكر ويتدبر به، ووهبه إحساساً ليحس ويشعر. فمتى ما شعر بأنه أنصف فلا يؤخذ عليه، على أن يضع نفسه مكان الطرف الآخر، وينظر إلى المسألة من وجهة نظره أيضاً.

فذلك الخليط العجيب من الأفكار غير المتناسقة مع بعضها بالنسبة لها، عبارة عن مقتطفات لمحاضرات سابقة للدكتور وان، ولكن لم تسعفها الذاكرة في ذلك الوقت؛ لتركز على شيء آخر، إذ كانت في عالمها الوردي جالسة تحت ظل شجرة كبيرة عتيقة عمرها مئتي عامٍ، غطّت جذعها الطحالب الخضراء الرطبة، تجعل النسيم الذي يلامس وجهها بارداً بعض الشيء، فتحاول أن تدفئ نفسها بالأرنب الأبيض الكبير الذي تحتضنه. واختلط صوت خرير المياه من الجدول الصافي القريب من قدميها، بزقزقة العصافير في أعشاشها على الأغصان، مع حفيف أوراق الشجر الخضراء اللامعة لحداثتها. ولم تصدق

عينيها مشاهدة الأستاذ يجمع أوراقه المتناثرة على الطاولة، ويضع حاسوبه الشخصي في الحقيبة ثم يخرج من القاعة مبتسماً كالعادة.

فأسرعت و دون أن تشعر أنها تدافع زميلاتها للحاق به وتطلب من زملائها السماح لها بالمرور بينهم، لتدرك الأستاذ الذي لم تستطع أن تصل إليه، إلى أن وصل إلى مكتبه، وبدأ بسماع أغنية على هاتفه، فتوقفت تنصت للأغنية؛ وهو منشغل بإعداد القهوة، بطريقته الخاصة؛ ليستمتع بها أثناء استراحته، التي يحاول أن ينفرد بنفسه ويستمتع بقهوته لبعض اللحظات، التي لا يستسيغها أحدٌ بسبب طعمها الغريب. فقلبت أفكارها رأساً على عقب، وإنهارت جميع تصوراتها عندما سمعت الكلمات:

بيني أنا وبينك خلاص في شي إنكسر

ما بسألَكْ مِنْ إنهَزَمْ مِنْ انتَصَرْ

لو باقي عندي منك شوية أمل

بصبر عليك وبحمل اللي ما بينحمل

ما بسألَكْ مِنْ إنهَزَمْ مِنْ انتَصَرْ

هَمّي أنا بِالَليلْ ينساني الألَمْ

دوب مع النسيان لحظات الندم

لمين بشكي

هم قلبي اللي إنظلم

صعبة النغم ما يحن ع غياب الوتر

لكن إنت مليت وشو بخاف الملل

أهون عليَّ اللوم يا محلى الزعل

فكمية الحزن المكنون في كلمات الأغنية، ودمدمة الأستاذ لتلك الكلمات بصوت خافت حزين، ونظراته غير المركزة على شيء معين، خلال نافذة مكتبه الواقع في الطابق الخامس، المطل على حديقة الكلية، ومرح الطلاب ومشاكساتهم فيها، والتقاطهم الصور واللعب مع القطة المشهورة نونو، التي تظهر على صفحات التواصل الإجتماعي وهم يحملونها. كل ذلك يتطابق ويتناغم كلياً مع كلمات الأغنية.

فالصورة الدالة من الخارج تظهر بأن الجميع، قصر جميل في مدينة زاهرة، ومن الداخل كوخ منهار في قرية مهجورة؛ مما جعلت ناز تتراجع خطوات لتخرج من المكتب خائبة، فلم تحاول أن تختلس حديثاً، أو تسترق النظر، لأنه شيء نكرٌ يأباه الخَلْقُ، وتنكره خُلُقُ فتاة مهذبة ربيت تربية صالحة، ونشأت تنشئة حسنة. فكادت أن تغادر المكتب لولا شوقها العارم لمعرفة ما يجري حولها.

فَكَّرَتْ في ذلك، دون أن تدرك أنه ليس للحياة معنى واحد فقط، فهي الحب حسب مفهوم غاندي، والجحيم وفقاً لدوستويفسكي، وفكرة كما عبّر عنها ماركس، وقوة وفقاً لنيتشة، وفن حسبما عبر عنها بيكاسو، وإيمان كما فهمها ستيف جوبز، ومعرفة حسب رأى آينشتاين. ولكن إحساس الأستاذ بشيء جعله يلتفت بسرعة، فقال مبتسماً ومتعجباً في الوقت ذاته:

– نازلي، ماذا تفعلين هنا؟ لم أشعر بوجودك! منذ متى وأنت هنا؟.

طرح تلك الأسئلة وكان يحاول كظم غيظٍ، ومسح دمعةٍ، وإخفاء حزنٍ، فبدا وجهه غريباً عنها، سعيد وحزين في الآن ذاته كلوحة الموناليزا الشهيرة، متسائلاً ومتعجباً من وجودها في المكتب دون أن يشعر، كظمه لغيضٍ ألمَّ به، وإخفاء الشعور بحزن عميق جرحه، ولا تواسيه سوى كلمات أغنية تروي قصة كسر الخواطر.

– لا دكتور، كانت لديَّ بعض الأسئلة عن مفاهيم لم أفهمها، كقانون الجذب، والآيزوتيريك، والـ (ID, Ego, Super Ego)، الغريزة الإنسانية، توازن العلاقات والأفكار. فبثرثرتها حاولت إخفاء شعورها، كي لا يدرك الأستاذ بما أحست؛ لأنه في أول محاضرة له قال: أستطيع أن أفهم جميع حركاتكم وإيماءاتكم، بل وحتى قراءة أفكاركم والتحكم بها أيضاً، حينذاك لم تصدق ذلك إلى أن قامت طالبة في القاعة، وقالت: أستاذ قسماً لم أقصد ذلك، أعتذر. ووسط ذهول الجميع قال لها: لا بأس إنه شيء اعتيادي بالنسبة لي، وقد اعتدت عليه، لتكراره كثيراً.

– لا بأس يا ناز، أجزم أن أغلب الطلاب لم يفهموها مثلك، سأعيد شرحها بتمهل، والإتيان بالأمثلة وبعض التدريبات في المحاضرات القادمة، ولا داعي للتأسف؛ لأن الأنثى عندما تكون محطمة منهارة نفسياً، فسينعكس ذلك على واقعها وتفاعلاتها مع من حولها؛ فمشاعر الخوف والتأنيب والعار المدمرة لمنارات المحبة في نفسها، وتتغول على مديات جمالها، ومناهل توهجها

فيبهت سطوعها، ويخفت بريقها، فتصبح جسداً مهلهلاً كهيكلٍ هشٍ، ودمية بلا روح؛ لذا كوني قوية وواجهي موجة الأحاسيس الباطنية غير اللائقة بك، وتصالحي مع نفسك، وكوني على يقين بأنك أسعد مخلوق على وجه الأرض، حينها ستكونين كما تتصورين. لتفتحي الباب على مصراعيه كي ترحل أحزانك، وسوء ظنك بنفسك إلى الأبد ودون رجعة. فستشعرين حينها ومن أعماقك بالسلام الداخلي. ومن ثم أنظري لواقعك الجميل اللائق بك. ولا تسمحي لأحد بعرقلتك عن محاولتك في الإشراق، فهذا الإبتهاج يليق بك، كما لو أنك خُلقت لتُضيئى.

- شكراً دكتور.

- مسكينة، بل مساكين، لا يعرفون أن تلك العبارات ليست إلا جملاً خطت بحبرٍ على الورق، كتبها أناس ربما أقل ذكاءاً منهم، أو أنها ليس إلا ثرثرات مبالغ فيها كتبت بكلمات منمقة.

خرجت من المكتب مذهولة، مشتتة الأفكار، متوجهة في الحال إلى زميلتها رحاب، التي إنفصلت قبل يومين عن خطيبها الذي فسخ الخطبة دون سبب وجيه، وهي محطمة القلب وتقول دائماً لم يتحطم قلب كقلبي. وكانت ناز خلال اليومين المنصرمين تحاول جاهدة مواساتها دون جدوى، ومحاولة تخليها عن فكرة الإنتحار، فانتهزت الفرصة.

- رحاب، ما تصورك للدكتور وان؟

- شخص مثالي مرح و...

– ذهبت إلى مكتبه الآن، فاكتشفت بأنه يحمل هماً كبيراً، وله جرح عميق. وقصت ما حدث لها مع أستاذها المثالي المرح و...

وجلست بجوارها على مقعد حديدي ضمن مجموعة من المقاعد التي وضعت حديثاً في ذلك المكان، ونظرت من خلال نافذة الممر، وتنهدت.

– آه، قد يكون همك أخف من همه، فله شخصية حرة متعالية على العقبات والهموم، يدرك كيف يدبّر وضعه ويتأقلم مع واقعه، ليصنع يوماً أجمل وحياة أكثر إشراقاً، دون أن ينفصل عن ذكرياته وما يشكو منها. ويجعلها مصدر قوته ومرحه، فيعلن إنتصاره. أما حب خطيبك، فكان حباً أوهن من بيت العنكبوت؛ لذا لم يقاوم أخف شيء واجههُ، فانهار. كوني على يقين بأنه لم يكن ليدوم طويلاً، ولكانت الكارثة أكبر. فالإنتحار لا يعالج المشكلة، وهو لن يندم عليك، وستكونين أنت الخاسرة الوحيدة، فمثل هذا الحب لا يستحق تلك التضحية. فلم يكن عليه أن يدَّعي الحب، وهمه التغذي على مناهل اهتمامك، لكن يبدو أنه ارتكب ذلك الخطأ الفادح، فكان يمتص طاقتك الإيجابية، ويحولها إلى طاقة سلبية. ولا فرق بين مصاص الطاقة ومصاص الدماء، فكلاهما يقتل الآخر ليعيش هو، لأنهما أنانيان. فالحب وبكل معانيه، ومستوياته ودوائره، أقدس من ذلك، وهو برئ منه.

– ولكن يقولون أن فترة الخطوبة أجمل فترات أو مراحل الزواج، فيها يتعارف الخطيبان.

– أبدا، إنها فترة النفاق، والأقنعة المزيفة، والوجوه المتعددة، ويبدو أن خطيبك كان صادقاً بما فيه الكفاية.

فضحكت رحاب ملء وجهها ولأول مرة منذ أيام... فكم كان وجهها جميلاً، عندما تضحك.

– أصبحت فيلفوسة زمانك، سأعزمك على وجبة معكرونة، أعدها بطريقتي الخاصة، فتوردت خدودها خجلاً من مديح صديقتها، وحاولت إطلاعها على بعض أسرارها:

– أتعرفين أن الكورونا كان سبب فسخ خطوبتنا.

– كيف؟... ضاحكة ومتعجبة في الآن ذاته.

– نعم عزيزتي، في آخر محادثة لنا، قلت له مازحة، حرارتك مرتفعة وقد عطست ثلاث مرات في أقل من خمس دقائق، هل أنت مكورن؟، فقال وما هو هذا المكورن؟، أجبت: هل أنت مصاب بالكورونا؟ فثار ثورته، وأصبح كالثور الهائج، وأسمعني كلمات لم أتوقع سماعها منه وتركني، وفي المساء إتصلت والدته بوالدتي معاتبة، وأبلغتها بقرار فسخ الخطوبة، متهماً إيايَ بإهانة عائلتهم.

– لا تحزنى عزيزتي، لقد فضّح نفسه في أول تجربة. ومن ثم فإنني فيلسوفة ولست فيلفوسة كما قلتي، وضحكا معاً بصوت شبه عالٍ.

****

إنتهى وان من شرب القهوة، بعد أن أحدث تلك الضجة، حيث أن محبي الشاي يتهمون محبي القهوة بأنهم يحدثون

الضجة، فيجيبهم عشاق القهوة: قهوتنا تستحق كل تلك الضحة... لحظات وسمع طرق الباب.

- مرحبا دكتور.

- نعم نازك، تفضلي.

- دكتور أريد دقائق من وقتك، لأمر مهم لو سمحت.

- لا مشكلة... ولكن أين إبتسامتك؟

- أكاد أفقدها، أيام، بل أشهر وأنتظر الفرصة لأحدثك في أمر مهم.

- وأنا أسمعك.

- دكتور، أعاني من مرض ...

- نازك، وهل هناك من لا يعاني من الأمراض والعلل!.

- ولكن مرضي خطير... إنه... إنه... السرطان.

- وهل هناك ما يدعو للقلق، إنه مجرد مرض. فهناك أمراض أخطر منه.

- ولكن الأطباء يقولون إن لم تتعالجي فقد تموتين بعد سنة.

- نازك، على الأقل أخذت ضمانا لمدة عام، فلا ضمان لي، قد لا أخرج من مكتبي... ومن ثم هل تعلمين أنني أيضاً مصاب بالمرض ذاته.

- دكتور؟!

– نعم نازك، ولكن ليكن سرٌ بيننا، وكنت على علم بمرضك، وقد إتصلت ببعض الجمعيات التي تجمع المساعدات لمرضى السرطان، وسيتصلون بك مباشرة للتأكد وقد يطلبون التقارير الطبية... فلا داعي للقلق، فقط كوني على يقين بالشفاء منه... واهتمي بدراستك وصحتك.

– دكتور، لا أعرف كيف أشكرك.

– عندما تخرجين ابتسمي لثلاثة أشخاص.

ما أن أكمل جملته الأخيرة حتى سمع رنين هاتفه، إنه وار .

– نعم وار أبشر... قالها بحماسٍ يشعر الطرف الآخر بمقدار كبير من الأهمية والطاقة الإيجابية، والأمل بحياة أفضل.

– أستاذي العزيز، أريدك أن تجد لي وظيفة مع منظمة، براتب لا يقل عن ألف دولار، أرجوك، أرجوك.

– وار، إن وجدت وظيفة بألف دولار فبلغني، أنا أيضاً أريدها لنفسي، أرجوك، أرجوك.

– دكتور، وعدت أمي أن أجد عملاً في غضون أسبوع بهذا المبلغ، وراهنت عليك.

– هناك وظيفة بمبلغ أكثر بقليل، في بلدة مجاورة، ولكن عليك السفر إليها والبقاء فيها طوال فترة العمل، مع إجازة ليوم واحد في الأسبوع، وأما مصاريف المواصلات والأكل والمعيشة فضمن مرتبك، أعتقد سيبقى من راتبك سبعة مئة دولار فقط، ولكن ستستطيع أن تقنع الوالدة بأنك حصلت على وظيفة بالمبلغ المذكور.

- شكراً دكتور، ونسيت أن أعلمك، أنني أنهيت القصة وأرسلتها بالإيميل.

- حسناً، متشوق لقراءتها.

شكره وار، وأغلق الخط، فإذا بالهاتف يرن ثانية، إنه إبنه، يطلب منه جلب بعض الكمامات؛ لأن معلمته قالت لهم غداً إلبسوا الكمامات فهناك فايروس منتشر في بعض الدول يسبب مرضاً يسمى كولون، فضحك وقال: - إسمه كورونا فايروس وليس كولون.

- المهم، إجلب لنا الكمامات.

- سآتي إلى البيت، أتغدى ونذهب معاً إلى السوق لجلبها.

****

ولأنه من النوع الذي يواظب على المطالعة المستمرة، ويتجنب الاستماع إلى الأخبار، فلم يكن يدرك ما يحدث، حيث أزمة الكمامات وبعض المستلزمات الطبية الأخرى، منذ ليلة البارحة يتهافت الناس على الصيدليات لشرائها بكميات تفوق حاجتهم، جرّاء إنتشار أخبار تفشي مرض معدٍ يسببه فايروس غير معروف، كذلك جشع بعض التجار وأصحاب بعض الصيدليات الذين إستغلوا الفرصة للثراء الفاحش.

تجولوا في الصيدليات القريبة فلم يجدوها، فذهبوا إلى السوق دون جدوى، وأصبحت عبارة (هل عندكم كمامات) من أكثر الكلمات التي وصلت إلى مسامعه في ذلك اليوم.

- هل عندكم كمامات؟... شاب وسيم

- هل عندكم كمامات؟... رجل أشيب الشعر

- هل عندكم كمامات؟... امرأة أربعينية

- هل عندكم كمامات؟... رجل مسن

- هل عندكم كمامات؟... رجل ثري يلبس بدلة أنيقة

- هل عندكم كمامات؟... امرأة فقيرة

- هل عندكم كمامات؟... شابان صغيران يلبسان بناطيل ممزقة؟ ليس فقراً بل تقليداً.

- هل عندك كمامات؟... رجل بدى عليه التعب، تغطي جسده المنهك ملابس رثة، وكأنه حمال يعمل في السوق.

- هل عندكم مزيداً من الكمامات؟... الصيدلاني وهو يتصل بصاحب الشركة التجارية مباشرة.

وما أثار انتباه الجميع، امرأة تقول: هل عندكم كمامات؟...، وفي يدها مجموعة منها، ملامحها الصينية أثارت مخاوف الجميع، فانتبهت لذلك؛ لذا قالت، سأرسلها إلى أهلي في الصين، إنهم في أمس الحاجة إليها.

يبدو أن الفايروس وَحّدَهم، فهو لا يميز بين فقير وغني، متمكن ومعدم، مثقف وأمي، شاب وفتاة، صغير وهرم، قومية أو دين أو مذهب، ولا يعترف بالحدود أيضاً. ولكن له عزة نفس، فلا يأتي إليك إن لم تذهب إليه.

– هل عندكم كمامات...؟ صوت جميل ناعم متعب رنَّ على مسامعه، التفت، لكن صوت الصيدلي شده إليه، صوت رفيع فيه شئٌ من التردد، بنكهة الجشع.

– لا توجد

فلم ينظر إليه بل خفض رأسه وركز على ما بين يديه من الكمامات، علبة فيها خمسون قطعة، وعرض على الفتاة تقاسمها مناصفة، ولكن الصيدلي قاطعه.

– بقيت لدينا علبة واحدة ..، فعرض عليها بسعر أغلى.

– خذي هذه.

تلاقت عيناها بعينين سوداوين عميقين، يعلوان رأساً عريضاً مثبتاً فوق جسد ممتلئ بعض الشئ، طويل إلى حدٍ ما ... فأخذت العلبة، ودفعت ثمنها، وخرجت كخرساء حتى من دون أن تنطق بكلمة (شكراً)، كلمة إعتيادية لا تكلف شيئاً.

خرج مسرعاً على أمل أن يلتقيها، لكنها توارت عن الأنظار، والتفت يميناً ويساراً، دون أن يجدها؛ فمسك يد إبنته، ذات الوجه القطني الدائري الفاتن، بخدود وردية منتفخة، أنسدل عليها شعر أسود فحمي، وجسد ممتلئ، والتي لم تفهم شيئاً مما حصل، إلا أن الفضول دفعها إلى طرح الأسئلة التي ازدحمت في رأسها إزدحاماً غير مسبوقٍ:

– لماذا أعطيت العلبة لتلك الفتاة ونحن نبحث عنها منذ ساعات؟ لماذا لم تشتري هي من الصيدلية؟ لماذا لم تشتري علباً كثيرة؟ ولماذا حاولت البحث عنها؟

– لأن الصيدلي حاول أن يبيعها بسعر مرتفع؟ وإستغلالها. لكنني منعته من ذلك، فأعطيتها علبتي، واشتريت العلبة الثانية. ولم أشتري علباً كثيرةً، فواحدة تكفينا لوقت غير قليل، وخلال ذلك الوقت ستتبين الأمور، والله مدبر كل شيء. وقد أعطيتها بعد أن تأكدت من أن لدى الصيدلي الكثير منها، لكنه يخبؤها ويحتكرها ليبيعها بسعر أغلى، فيستفيد مادياً بضع دنانير، ولكنه حتماً سيخسر وجدانه وعملاءه، وأموراً كثيرة أخرى. وأخيراً حاولت تقاسم ما في علبتنا؛ لأنها إن لم تستطع الحصول عليها، قد تتعرض للمرض وتصبح خطراً على المجتمع كله، وتنقل الفايروس إلى غيرها، وحينئذ هل سيفيدنا ما لدينا من كمامات؟.

وجاء دور إبنته نورهان للرد على تساؤلاته، ولكن مازال في ذهنها سؤال آخر، احتفظت به لنفسها، لو كان ذلك الشخص رجلاً!، أكان والدي سيتصرف بالطريقة ذاتها؟، أم سيتركه ليتم استغلاله من قبل الصيدلي؟ وكان تساؤلها كفيلاً بأنها إقتنعت بأجوبة أبيها. فقالت لوالدها همساً مع نفسها: ليتني كبرتُ، كي أفهم الحياة مثلك. فهمس والدها أيضاً مع نفسه، دون أن يعرف ما دار بينها وبين نفسها: الكل يفتقد النسخة القديمة من نفسه، رغم قلة خبرتها، إلا أنها كانت الأكثر سعادة.

نورهان الفتاة الذكية النجيبة، أفكارها في غاية البساطة والعفوية، وتملأ عينيها سحر البراءة، ولكنها غير بسيطة أبداً... فتمكّن والدها بصعوبة بالغة من إزاحة بعض الغموض من أفكارها.

وفي تلك الأثناء، قطع صوت مألوف سلسلة أفكارها، وأثار إعجاب والدها في ذات الوقت.

- شكراً، ما فعلته شيء بسيط، ولكنه نابع من ضمير حي، وقلب جميل مفعم بالحياة، تعبت كثيراً بالبحث عن بعض منها، دون جدوى. لولاك لباعني بسعر أغلى، ولم يكن معي ما يكفيني. فهلا أتممت إحسانك، وأكرمت عليَّ ببعض المال، كي أشتري بعض الإحتياجات المنزلية، وأرجع إلى بيتي، فوالدتي بانتظاري وقد نسيت هاتفي في المنزل، وهي لا تعرف عني شيئاً، ومتأكدة أنها قلقة عليَّ.

- إشتري ما شئتي، سأدفع الثمن وأوصلك للبيت.

- نورهان دعنا نساعدها.

- والدي المسكين، يبدو أنك وقعت في شراك العنكبوت، وأن صلابتك قد ذابت في رقتها... فما زلت تستنشق عبق حبك لأمي، عندما أموت سأخبرها بكل شيء.

- نورهان ما بالك؟!، أين سرحت؟!، دعنا نساعدها.

فاشتروا الحاجيات المطلوبة، وأوصلوها للبيت، فأصرت على الدخول، كي تتعرف والدتها عليه، التي هي بدورها شكرته كثيراً، ولكن كان ينتابها شعور غريب من أن يتم استغلال إبنتها الجميلة الوحيدة التي سترث ميراثاً كبيراً لوالدها، بعد أن تنتهي معاملات القسام الشرعي وتوزيع التركة.

لكنها هي التي تعلقت به تعلقاً جنونياً، فكانت تمدحه صباح مساء، وتتابع أخباره وتسأل عنه، وتطلب منه الأشياء التي

تحتاجها في المنزل. ولم تمر مناسبة إلا وتستغلها للإتصال به، وأحياناً تتصل دون مناسبة لتطمئن عليه، ويسلك بها الشوق الطريق إليه وتجبرها لزيارته في مكان عمله، بموعد أو حتى دون موعد مسبق. وفي كل مرة تزوره تطلب منه الخروج في نزهة. لكنها في كل مرة تلقى الرفض التام.

وكان رامان يساعدها في كل ذلك، ويتابع معاملات الحصول على تركة والدها، التي لولاه لما حصلت على الميراث، لأن شركاء ولدها قد تلاعبوا كثيراً بممتلكات الشركة وأصولها وحصصها، بالحيل والثغرات القانونية.

وفي إحدى تلك الزيارات أصرت على أن يخرجا في نزهة قصيرة، وقد وافق أخيراً بعد إصرار وجهد جهيد، لكن اقترح أن يخرجا في وقت لاحق لكثرة مشاغله. وفي كل مرة كانت تذكره بتحديد موعد النزهة، كانت لا تلقى منه غير إقتراحٍ بالتأجيل من قبله. وقد قبل الخروج أخيراً على شرط أن تصاحبهما إبنته نورهان، لكنها رفضت رفضاً قاطعاً، فاشترط عليها شرطاً آخر، وهو أن لا تتكلم بكلمة حتى يخبرها بسر لا يعرفه الكثيرون، خصوصاً أقرب المقربين منه، فلم تتردد في الموافقة على الشرط، وشرطه الثاني، وهو أن يجتمعا فى مكان عام، حديقة، أو المتجر الكبير، أو أي مكان آخر مماثل وذلك بعد يومين.

****

بمجرد أن فتح وان بريده الألكتروني، وجد قصة وار: طفل سعيد، يطمح التمجيد، يلبس قميصه الجديد، يرقص فرحاً

باقتراب العيد، ينشد الأناشيد، على أنغام أنين شاب بليد، في قبره العتيد، مات منتحراً من أجل التقاليد، أضاع عمره المديد، فاقداً عقله الرشيد.

فرد عليه، لم تكن القصة وفق المواصفات المطلوبة، ولكنك أبدعت في النثر، وسبك الحروف، ستكون يوماً ما كاتباً مشهوداً له. حاول دائماً التعبير عن أفكارك ومشاعرك وأحاسيسك المكبوتة بالكتابة سواءاً نشرتها أم لا.

****

لبست أجمل ما عندها، وتعطّرت لأنها تعلم أن للعطر لغته الخاصة، التي لا يفهمها سوى القلوب التي كثيراً ما ترتبك، وبعد قضاء ساعة كاملة من كورس الميك آب، ذهبت إلى المتجر الكبير. وحالما دخلت، وجدت رامان يلوح لها بيده، وهو جالس على أحد المقاعد المريحة في مكان استراحة رواد المتجر، فتوجهت إليه بخطى سريعة، خفيفة، وابتسامة جانبية عريضة، إنتفخ خدها الأيسر على إثره، دون أن تظهر التجاعيد تحت عينيها، وهي من علامات الابتسامة المزيفة.

- كم أنا سعيدة بلقائك حبيبي.... قالت وهي ممسكة بحلمة أُذنها، ثم مررت أصابعها برقبتها بعد أن وضعت أصبعاً واحداً على شفاهها قليلاً من الوقت، فخاب بذلك أمله فيها، إذ تدل تلك الحركات في لغة الجسد على الكذب الصريح، لا سيما أنها قامت بكل تلك الحركات بالتعاقب، واحدة تلو الأخرى،

فأيقن مما يجول في خاطره. وخاب أمله أكثر عندما لم يشاهد لمعان عينيها البنيتين الكبيرتين نوعاً ما.

لكنه رغم كل ذلك، رحب بها بحرارة، دون أن يمد لها يده، محتجاً بأن تعليمات وزارة الصحة تمنع المصافحة والمعانقة، فلم يعجبها تلك الحركة؛ لأنه منعها من فرصة معانقته، أو على الأقل مصافحته لتمنحه نفحة من الحب، فبدا لها بارداً هذه المرة، لذا سكتت سكوتاً مخيفاً. إلا أنها بادرت إلى الجلوس بجواره واضعة حقيبتها إلى جانبها الآخر، كي لا تفصل بينهما، ولم تضعها في حضنها، لأنها شعرت بالأمان معه، والرغبة فى الحماية.

– لن أطول عليك كثيراً، سأخبرك بسري، ولكن عليَّ أن أعرف وجهة نظرك تجاه الأشخاص المصابين بالسرطان مثلاً. وكأنه سكب عليها جرة من الماء البارد.

– إنهم ميتون لا محال، ومن ثم ما دخلهم بحديثنا، وبسرك؟. ويبدو أنها توقعت إخبارها بأنه يكنُّ لها مشاعر غريبة، كي تبادر وتقول وأنا أيضاً، إنه الحب، أنت تحبني كما أحبك. لكنها إنصدمت بسماعها قول: جميعنا ميتون لا محال.

حاولت توضيح عبارتها، قائلة: أقصد أنهم أحياء ميتون، كيف يعيشون لا أعرف؟، كيف يستمتعون بحياتهم؟، لا أدري، كيف يدبرون أمور حياتهم؟ لا أريد أن أعرف حتى كيف يقضون لياليهم الطويلة وحدهم لا أتخيل ذلك؟ وكانت في عجلة من قول كل تلك العبارات، كي تنهي هذا الحديث ويدخلا إلى حديث الحب والغرام.

لكنه قال مختصراً للمحادثة والدخول في الموقف الحاسم: دعك منهم، إنهم يعرفون كيف يفعلون كل ذلك، دعني أسألك سؤالاً جوهرياً. كيف تراني؟ أريد أن أرى نفسي في عينيك.

- فارس الأحلام! المخلّص، الرجل المثالي في زمن إنقراض الوفاء، وانتهاء النبل وشيم الرجولة.

- كم عقولنا تافهة لصغرها... قالها في نفسه، ثم سألها... لو أحببتِ شخصاً بهذه المواصفات، ثم عرفتِ أنه مصاب بالسرطانَ، ماذا ستفعلين؟، كيف سيكون موقفك؟، كيف ستتصرفين؟

- سأتركه في الحال؛ لأنه ميت لا محال.

- هل تستطيعين مصافحته؟

- لا بل سأبتعد عنه مئة متر وأهرب... واضعةً رأسها على كتفه، وشبّكت أصابع يدها اليسرى في يده الأيمن، فأمسك بها بشدة.

- عزيزتي في بعض المواقف استخدمي الرفض؛ وإلا فإنك وحدك دون سواك، ستدفع ثمناً غالياً جداً، فأغلبنا نستدين من مستقبلنا لنسد ديون ماضينا.

- لم أفهم شيئاً، لذا لا أبالي.

- أتدرين أنني ومنذ سنوات مصاب بالسرطان؟.

رفعت رأسها بهلع، ونظرت إلى عينيه، لتتيه فيهما كسفينة تقاوم أعاصير هائجة لمحيط ثائرٍ، فأبعدت جسمها عنه قدر

الإمكان، ودب برد شديد في جسدها، فحاولت سحب يدها، ولكنه شدها قدر ما استطاع، فكادت أن تصرخ، وكأنها تحاول الهروب من ملك الموت، أو من شخص مصاب بالكورونا، أو وباء أفتك منه، وعندما سمح لها بذلك، هربت ورأسها مائلٌ قليلاً إلى اليمين. ولسان حالها يقول قد يؤلمك العالم أجمع، ويسعدك شخص واحد. ذلك الشخص هو نفسه الذي قد يؤلمك يوماً، ويعجز العالم كله على إسعادك، إلا هو.

لحظات قليلة وتوارت عن الأنظار هاربة منه، فتذكر اليوم الذي تعرف عليها، عندما توارت عن الأنظار، بعد أن اشترى لها علبة الكمامات، فقال في قرارة نفسه: أين أنتم يا معشر العشاق، فرهاد وشيرين، قيس وليلى، روميو وجوليت، أين أنتم من الحب المزيف، الحب الذي يذيب جسداً، ويقتل روحاً، ليعيش جسد الآخر دون روحه، مقهقهاً معلناً إنتصاره، غير مؤمن بمبادئ الحب الأبدي، يكون الحبيبان مستعدان لأن يموتا من أجل بعضهما بعضاً. أو ينصهرا كروح واحدة في قالبين، يكونان شاهدين على صدق حبٍ، الحب في زمن الكورونا. فإنني إنسان من لحم وعظام ومشاعر، ولست فارساً من نسج الخيال.

وتذكر لوحة «الهروب من الإطار» للرسام الإسباني بيردل بوريل التي تقول: عندما تخرج من الإطار الذي صنعوه لك، ستندهش وستندم على كل لحظة عشتها، فرضت عليك بمسمى الأُطر والتقاليد. فواقعنا الحالي يجسد هذه اللوحة بجميع تفاصيلها، وقال في نفسه، لست الوحيد من يحس بهذا الشعور بل جميعهم تقريباً.

– تحبينني معصوماً من العيوب، منزهاً من السلبيات. تحبين لقائي، وتخافين من أنني مصاب بذات المرض الخبيث، فتتركينني دون إستئذان، بل تهربين دون التفات. فإن كنت تحبينني لكنت أحببتي حتى عيوبي؛ لذلك اختلقتي الحجج لتهربي. سأتذكر هذا اليوم، عندما نظرت إليك والشك يعشعش في قلبي بأنك ستكونين شخصاً آخر على قائمة العابرين في حياتي، وودت حينها لو أن عقلي يكذب، لو أن قلبي يتسع لأخبئك، وأحتفظ بك للأبد. ويحك، لقد خاب ظني مرة أخرى، لقد خذلتيني.

وقد أيقن للتو، أن بقاء بعض الناس ورحيلهم مرهون برغباتهم وتطلعاتهم ومصالحهم، لا بما تقدمه لهم. فمنهم من يبقى معك حتى وإن لم تمنحهم شيئاً أو إن قلَّ عطاؤك، ومنهم من يرحل رغم سخائك وتفانيك، حتى وإن أغدقت عليه أموال الدنيا كلها. وأدركت الآن كم أن مهمتنا ليست بالسهلة أبداً، نحن دعاة الحب اللامشروط في زمن يلهث فيه الناس خلف بريق المظاهر الزائفة! لذا أصبحت العلاقات مصلحية وسطحية، وبات الحب زائفاً لا معنى له ولا روح. فالبعض يظن أن الحب مجرد زورق يوصلهم إلى واحة الليالي الحمراء، ليجعلها مستوطنة يستعبد فيها المحبوب، غير مدركٍ أن الحب غاية في حد ذاته، وتغذيته مسؤولية الطرفين.

فكورونا أوفى من هؤلاء المحبين المزيفين؛ فهو لا يترك مريضه إلى أن يموت ويحيى المريض مستقبلاً حياة جديدة، أو أن يموت المريض فيدفن مع مرضه. وسيجد أبواب الجنة

مفتوحة له. ثم توقف وقال: إلا أن الجنة لا أبواب لها كما نتصور، كي تفتح أو تسد بوجهنا، بل هناك حجب نوراني يزول بإرتقاء الوعي والإدراك. وقد ذهب اليونانيون إلى أبعد من هذا، فقالوا أن الجنة ليست سوى العيش الطيب.

****

فى مدخل المتجر صادف وان نازك طالبته في المرحلة الثالثة، فتاة في الثانية والعشرين من عمرها، ذات عينين بنيتين كبيرتين، تلمعان في وجهها الطفولي الدائري وشعرها المصبوغ باللون البني الغامق، وقامتها الرشيقة، تخرج مسرعة وكأنها تهرب من خيال يطاردها، حاول إلقاء التحية عليها، لكنها تجنبته، لأمر ما، فأوعزها وان إلى مرضها، إذ قالت له قبل أيام أنها مصابة بالسرطان، وجرى بينهما حوار مطول.

في غمرة تفكيره بنازك، وخشيته من أن شخصاً ما ربما أزعجها بالحديث عن ذلك المرض الخبيث، الذي يرهق مرضاه دون رحمة. وجد صديقه رامان، جالساً في إحدى الزوايا، الذي حياه بحبور رغم أن وجهه كان ينطق بؤساً، فجلس إلى جانبه، وسرعان ما إندمجا في حديث يعكس مشاعر الحزن والأسى.

بدأ رامان يروى قصته، ووان منصت له بكل جوارحه، متقمصاً دوره، وفي غمرة تفكيره، وذهابه بعيداً بالزمان والمكان الحاضرين؛ لأنه أيضاً في ذلك اليوم كان مع إبنه في السوق يبحثان عن كمامات، واستطاعا الحصول على علبة واحدة فقط، وذلك بعد جهد جهيد.

ففي الظروف الإعتيادية قد لا نتمكن من التمييز بين هذا وذاك، ولكن في الأزمات والمحن، تظهر المعادن الحقيقية. ومن الأجدر أن تقرأ صاحبتك، بل وكل الناس روايات كـ (الحب في زمن الكوليرا) للروائي الكولومبي غابريل غارسيا ماركيز، ورواية (الطاعون) للكاتب والروائي الفرنسي ألبير كامو، ورواية (العمى) للكاتب البرتغالي جوزيه ساراماغو، ورواية (السائرون لوحدهم في الحياة) التي كان بطلها مصابا بالجذام.

فهز رامان رأسه علامة على الموافقة التامة، إلا أنه تأثر بالعنوان الأخير (السائرون لوحدهم في الحياة) وقارنها بنفسه دون أن يعلم تفاصيل الرواية، إلا أنه ذكر نصاً من رواية العمى على لسان زوجة طبيب القرية التي فتك بها المرض وانتشر فيها، وعمت الفوضى وأصبحت ميداناً لإختبارٍ حقيقي للأخلاق الإنسانية، «لا أعتقد أننا عمينا، بل أعتقد أننا عميان نرى بشراً عميان بإمكانهم أن يروا لكنهم لا يرون». أي أن المعادلة معكوسة، فالعميان يبصرون أو بإمكانهم أن يبصروا، ولكن من يعتقدون أنهم يرون فهم عميان لا يبصرون.

– يبدو أن صاحبتك قد إنهارت، لهول ما سمعت فلم تتحمل ذلك. أو تذكرت شخصاً مقرباً منها مصاب بذات المرض فلم تتحمل.

– قد تكون صائباً، ولكنها كانت متعلقة جداً بي.

– ويبدو أنك أيضاً متعلق بها إلى حد الوله... فقط أصبحت أكثر ظرافة ولطافة ونظافة، وهي من أولى علامات العشاق.

ومن ثم يجب أن نعرف أن لكل إنسان نقطة ضعف، وفي لحظة ما سينهار فيها، فيبدو أنها أنهارت لسبب ما.

- كم نحن ضعفاء، خصوصاً في هكذا ظروف؟!.

- نعم يا صديقي، فالآن أصبحت البشرية أمام إختبار عسير جداً، وفي هذه الظروف يتبين الأخلاق، أخلاق السياسيين، القادة، التجار، رجال الدين، الأطباء وحتى المرضى أنفسهم، كل على قدر مسؤوليته واختصاصه وكيفية تعامله مع المشهد الدرامي الذي يمر به العالم الآن.

ثم تحولا إلى تفاصيل أدق، فقال وان: لنتعلم من الصينيين الحب والحياة في الوقت نفسه، هل رأيت صورة الشاب الذي يقبِّل جبين حبيبته ويفصلهما زجاج غرفة الحجر الصحي؟ ويقول لها بصمت ومن دون كلمات: «سنتزوج على الفور عندما تعودين». وهل رأيت صورة الزوجين المسنين الذين مسكا يدي بعضهما بعضاً مستلقيان على الفراش في الحجر الصحي، وقد أثبتت جميع الفحوصات أنهما مصابان بفايروس كورونا، وكأنه آخر لقاء بينهما، وينتظران آخر ما قد يحدث لهما.

ولنتعلم من الفلبينيين، إختراعهم تصاميم لباقات من ورود عيد الحب، مليئة بالمطهرات اليدوية، فلم يثن الوباء إحتفالهم بعيد الحب، بل حاولوا مواجهة المرض والموت بالحب، فأحيوا هذا اليوم وبطريقتهم الخاصة، بإهدائهم الورود مع مستلزمات بسيطة تبعد عنهم المرض الفتاك.

ومن الإيرانيين إبتداعهم طريقة للتحية والسلام على بعضهم

بعضاً بالأرجل، فيبعث الفرح والبهجة دون اللمس المباشر بالأيدي، تجنباً لنقل الفايروس والإصابة به.

ولنتعلم من البريطانيين أسلوبهم الرسمي بقدر من اللاود أو البرودة في التحية والتوديع (Biritish stand of fishness) لتجنب إنتقال الفايروس؛ لأنه ينتقل بشكل أسرع في البيئات الإجتماعية؛ فهو يعتمد على التواصل الإجتماعي بشكل أكبر؛ لذا يمكن أن نطلق عليه بالفايروس الإجتماعي.

ولنتعلم من الإيطاليين نصحهم العالم بعدما فقدوا السيطرة على الفايروس القاتل، فيقول بعضهم إدخروا نصائحكم لأنفسكم، لو كانت تجدي نفعاً لنفعتكم، ولكن وكما يقول على الوردي في إحدى مؤلفاته: فاتهم الأمر ولا يريدون أن نكون مثلهم. أن لا نقع فريسة لفعل طائش أو أهمال متعمد.

ومن النمل عندما أحست بالخطر على مملكتها باقتراب جيش سليمان (قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ)، فحجرت نفسها في مساكنها، ولم تخرج إلا بعدما زال الخطر.

ولنتعلم من الحكومة والمجتمع تعاملهما بحكمة وسياسة رشيدة مع الوباء، فأغلقوا أبواب المدارس والجامعات وقاعات الأعراس والتعازي، ودور العبادة، والمقاهي وجميع مراكز تجمع الناس، تجنباً لكارثة أوشكت أن تحدث. والتعاون الكبير بين الحكومة والمجتمع. كذلك ذهاب الكثير من المصابين المحتملين طوعاً ومن تلقاء أنفسهم إلى مراكز الكشف عن المرض وحجرهم، حباً لأنفسهم وعائلاتهم ومجتمعهم.

لقد تطور العالم، وتغيرت وسائل المواجهة والتعامل مع هذه الحالات، فكان الصينيون القدامى يجتمعون للضرب على الطبول أمام الوباء. وكان المسلمون والمسيحيون في بعض المناطق يكتفون بالإعتكاف في الجوامع والكنائس للصلاة والدعاء والتضرع إلى الله، راجين أن يخلصهم من الوباء. وكان الأفارقة يرقصون حول سراج يوقدونه بأنفسهم لتخلصهم من الأوبئة والأمراض الفتاكة، ووسائل أخرى قد أسهمت في زيادة الأمر سوءاً، ولكن الإنسان عندما يفقد الأمل فإنه يتمسك بأي شيء قد يكون سبباً لنجاته، وتخليصه من آلامه.

– صديقي العزيز، يجب أن تدرك أن هناك فئة من البشر، تلعب دور الضحية، والمظلوم الفاقد لحقوقه، ويشحن من حوله بطاقة سلبية؛ فيضفي علينا بذات سلبية متشائمة، فيذهب ليعيش حياته بكامل سعادته!. لذا إياك واليأس من أي شخص، فالمعجزات تحدث كل يوم. أو قد يكون هناك شيئاً آخر لا نعلمه، فالناس أبعادٌ ووجوه، ونحن لا نرى إلا بعداً واحداً ووجهاً واحداً.

وأن هناك قلوباً نقية كأرواح الملائكة، تعزف للحب لحناً شجياً على قيثارة الحياة، تحيط بنا من كل جانب، لاحتواءنا في لحظات الضعف والهوان، فيجولون بنا بقطار الزمن عبر حقول الحب المزهرة تحت وابل من أمطار الربيع، فلا نسمع من ضجيج الحياة سوى نبضات قلوبهم، متآلفة مع نبضات قلوبنا، لا تشوبها غاية أو مصلحة.

كان على رامان أن يسمع الكثير، لولا أن وان طلب الإستئذان منه، بعد ان وعده بلقاء قريب، إثر صوت هاتفه الذي أشعره بوصول بريد ألكترونى، سرعان ما فتحه فوجد دعوة لحضور ملتقى في دولة الإمارات العربية المتحدة. فابتسم وكأنه كان ينتظرها منذ زمن بعيد، لكنه لم يكن يعرف متى، وكان يقول في قرارة نفسه، لم نتخل أبداً عن أمورٍ تجعلنا نبتسم، إلا أنها أحياناً هي من تتخلى عنّا دون إرادتنا، ولكن دائماً هناك أموراً أجمل، ففقداننا لبعض الأشخاص أو الأشياء تجعلنا أحياناً نرى العالم بشكل أجمل وأوضح؛ لأنهم كانوا يمنعون عنا ذلك، أو يشوشون علينا الرؤيا، إنه التدبير الإلهي اللطيف الذي لا يفارقنا، ولكننا أحياناً لا نشعر به.

في طريق خروجه من المتجر الكبير، صادف فتاة في مقتبل العمر تتشاجر مع شاب وسيم يبدو عليه علامات الغنى والثراء، وشيء من الجدية، ويخفيان شجارهما قدر الإمكان، إذ يقول لها: رواء صوتك مرتفع، ولكن كثرة الخلافات بينهما يؤدي إلى تصعيد النزاع، فالخلافات كانت كالمعتاد حول مواعيد الخروج، ووجودهما في البيت، الإلتزامات المنزلية، كيفية صرف الأموال، الحقوق الزوجية، فقال في نفسه، شيء طبيعي، مثلنا جميعاً، يتشاجران ثم يتصالحان، هكذا هي الحياة.

فالنزاعات والخلافات والمشاكل النفسية، والعائلية والإجتماعية، ملح الحياة، وأي مجتمع أو أية عائلة وحتى أي نفس، لا تعيش حالة نزاع، فيعني أنها نفس، وعائلة ومجتمع

ميت؛ لأننا لن نجد مجتمعاً هادئاً ونفساً هادئة دون نزاعات إلا في المقبرة، ولكن ما يميز الحب عن الكره، المنافسة الشريفة عن الجشع والحقد، هو التعامل الذكي مع النزاعات، أي تحويل أي خلاف وإختلاف إلى غنى وفرصة للإرتقاء والنمو والتطور.

****

وصل المطار قبل موعده بساعتين كعادته الدائمة في السفر، ليتدارك الوقت في حال حدوث أي خطأ أو سوء تفاهم، ولا تفوته الرحلة، وشعر سريعاً بالملل لقلة الموجودين في القاعة، فأخرج حاسوبه الشخصي ليلتهي به، وبين حين وآخر يتأمل ملامح الموجودين.

إكتظت القاعة بالمسافرين في دقائقها الأخيرة، فلاحظ محاولة الناس الإبتعاد عن بعضهم بعضاً، وأن المسافتين الشخصية والعامة قد إزدادتا على حساب المسافة الإجتماعية، وما هي إلا دقائق، وأعلن عن إستعداد الطائرة للإقلاع.

****

استفسر موظف الإستعلامات عن نزيل في الفندق «الأستاذ عرفان»، فلم يتعرف عليه الموظف ويبدو أنه كان مشغولاً، لأنه وبمجرد الضغط على زر الحاسوب سيظهر الإسم ورقم غرفته، إلا أنه لم يحاول، ومن باب المجاملة ليس إلا، اقترح عليه الموظف الإتصال به عن طريق هاتفه المحمول. لم يلح عليه، بل ابتعد قليلاً.

- إقتراح غبي، قالها بإمتعاض وشكره بإبتسامة مزيفة وأخرج هاتفه من جيبه متظاهراً العمل بنصيحته، ورفع رأسه

فرأى فتاة على بعد عشرين متراً، في الثلاثين من عمرها، نضرة بل غاية في الجمال والأناقة، ذات شعر أسود مموج طويل، وقامة ممشوقة، واثقة من نفسها إلى أبعد الحدود، تلبس ملابس جريئة جداً، ترمقه النظرات وتتوجه إليه مباشرة، وكأنها تعرف بمقدمه، وتتوق إلى لقائه. إلا أنه إستنكف وآثر التريث، لأنه غريب ولا يعرف تقاليد المجتمع الخليجي، فتصرف وكأنه مشغول، ولم يعر لها أي أهمية. لكنه عرف فيما بعد أن الناس هنا طيبون كرماء وعشرتهم سهلة، يحبون الحياة، يتمتعون بالطموح والإرادة، لا ولن تشعر بالغربة بينهم، فكل ذلك زادت من إلفته لهم.

هذا التعامل البارد كان كفيلاً لأن تتجنبه سمر مرغمة غير راغبة، وتتصرف كأنها تنتظر شخصاً غيره. لذا تجاهلته عندما اقترب منها. وليتأكد من حدسه، نظر إليها خلسة بطرف عينه اليسرى، فانتصبت الفتاة وراحت ترمقهُ بعيون حائرة وتركز بنظراتها على البوابة الرئيسية للفندق، إلا أن تسريبات من جسدها كفيل بأن يفضحها، وتدل على أن الشخص الذي كان ينتظره كان وان بعينه، ولا أحد غيره. ولكن تجاهله أجبرها على ذلك، فكان إتجاه قدميها نحوه، رغم أن إتجاه باقي جسدها نحو الباب، وحركة عينيها نحوه من الزاوية، وقرصها لطرف شفتها السفلى، وضرب فخذها بقبضة يدها اليسرى، وكست وجهها تعبيرات غريبة، فكل تلك الحراكات غير الإيرادية والإيماءات الواضحة، كانت كفيلة بأن توضح بأنها ليست إلا ردات فعل لتصرفه وتجاهله لها.

توجه نحو أقرب مكان للجلوس، لكنه لم يجلس فيه، بل اختار مكانا آخر يكون ظاهراً لها، كمحاولة لتصحيح خطأه، لكنه فضَّل أن لا يكون مبادراً؛ لذا جلس بهدوء محاولاً إيجاد طريقة للإتصال بصديقه «عرفان». لكنه في الحقيقة كان غارقاً في قاع الحيرة، إلا أنه أُبلغ برسالة نصية على تأجيل الإجتماع المرتقب لما بعد المؤتمر لأمر طارئ. فقرأ الرسالة مرتين ليتأكد من محتواها، وتوتر بعض الشيء فأغلق هاتفه وأعاد فتحه مرة أخرى، ومن ثم حول نظره إلى الفتاة فوجدها تتحملق إليه وتتجاهل الشخصية الإفتراضية التي تظاهرت بإنتظاره، فتأكد أنه هو الشخص الذي تنتظرها لإستقباله. وكانت متوترة جداً، وتقول في نفسها، ليتك أوليتني نصف الإهتمام الذي أوليته لهاتفك.

رفع يده وتوجه قبالتها، ففرحت كثيراً؛ إذ أن لمعان عينيها، وتورم خديها، وإبتسامتها العريضة، وإستعدادها الجسدي خير دليل على ذلك، وكما يقال: «السمراء إذا إبتسمت رفرف لها حمام السلام مغنياً»، إلا أنه تجاهلها هذه المرة أيضاً، وتوجه نحو موظف الإستعلامات، ولم تدرك سمر بأن سيتوجه نحو الموظف وليس نحوها، وكان من عادته أن يرفع يديه بين حين وآخر، فلم يكن رفع اليد في حينه العلامة المتعارف عليها، ولم يكن حتى موظف الإستعلامات أيضاً المعني بتلك الحركة، لذا خاب أمل سمر وأثار ذلك غضبها الشديد. ولأخفاءه ضربت الأرضية برجلها الأيسر، وصعدت الدرج إلى غرفتها مسرعة كبركان كاد أن ينفجر. ولم يكن أمامها الكثير من الخيارات،

فيبدو أنها لم تستطع التوازن بين (الأنا) الثلاث، والتصالح فيما بينها لتكوين شخصية متوازنة تستطيع التحكم بتصرفاتها (الخارجية أو الظاهرة منها) على الأقل، ومن ثم التصالح مع الذات كنقطة إنطلاق محورية لإعادة دمج أجزائها المنفصلة وفق نظرية الأجزاء، ومن ثم استعادة الشعور بالتوازن بعد التفرقة والإضطراب الذي أحدثته الصدمة في نفسها.

إذاً فقد غضبت سمر وذهبت غاضبة، وتم تأجيل الإجتماع، وساعتان يفصلانه عن موعد بدء المؤتمر؛ لذا خرج وان من الفندق وتوجه إلى الكورنيش، لعل صوت أمواج البحر المتلاطمة بالساحل الإسمنتي ورائحة البحر تنتشلانه من حالتها، وهنا تذكر صديقه شاكر، فاتصل به، وبعد قليل من المقدمات.

- أين وصلت ياشاكر؟

- أنا الآن بصحبة زوجتي في كندا.

فظن وان أنه قد حسم موقفه واختار زوجته، إلا أنه من سياق الحديث فيما بعد تبين أنه مازال قلبه متعلقاً بسوزان، التي لم تعد تبادله ذلك الشعور. والمشاكل بينه وبين زوجته مازالت قائمة. وقد تعرض في الآونة الأخيرة لأزمة مالية جرَّاء المضاربة بالأراضي؛ حيث إشترى مساحات كبيرة منها، بسعر معقول، إلا أنه وبسبب تفشي أخبار إنتشار الوباء، أصبحت أسعارها في الحضيض، وتدهور سوق العقارات بالإجمال. إضافة إلى ذلك وبسبب مشاكل نفسية كثيرة، كان يلجأ إلى المخدرات؛ فهدر أموال طائلة للحصول عليها، وقد أفلت بإعجوبة من أيدي

الشرطة بعد أن تم إلقاء القبض عليه بالجرم المشهود وهو يتعاطاها، دون أن يتعرفوا عليه، وحالته النفسية مضطربة جداً.

- ومما يزيد الأمر سوءاً، أن زوجتي دائماً تردد عبارة (الحب المسرطن)، هل تعرف ما هو ذلك الحب؟!

- لأول مرة يطرق إلى أسماعي هذا المصطلح.

- انزعج منه كثيراً، أظنها تقصدني.

- صديقي العزيز تعامل مع الحياة بهدوء ودون توتر، فحالتك النفسية ستؤثر على صحتك الجسدية.

- سأحاول التأقلم مع الظروف وأرتب أوراق حياتي، أعدك بذلك... بل سأبدأ من جديد.

- لكن البدايات الجديدة ليست إلا كذبة كبيرة.

- مهما يكن سأحاول إصلاح ما فسدته يدايَ.

قبل بدء فعاليات المؤتمر توجه نحو القاعة المخصصة ورافقته فتاة لتدله إلى المقعد المخصص له، وبينما يحادثها في الطريق شاهد سمر للمرة الثانية تنظر إليه مباشرة عندما دخل القاعة برفقة الفتاة، فتوهج وجهها الذي لم يدره بشكل تام، وهي متوترة للغاية، فأيقن هذه المرة أن الأمر ليس بالمصادفة.

استقبله الأستاذ عرفان بوجهه البشوش الذي تحيط به هالة مشرقة، استقبالاً حاراً وتعانق الصديقان، وتجمع حولهما أشخاص آخرون، تحدثوا قليلاً ثم جلس بعد أن وضع مستلزماته على المنضدة الدائرية المخصصة لخمسة أشخاص آخرين كتبت

أسماؤهم على الكراسي الموضوعة حول المنضدة، فإنشغل بها، وقرأها بشيء من التمعن: جميلة من تونس، أماني من الأردن، عنود من السعودية، فراس من العراق، إلى جانب إسمه وان من كوردستان.

بينما كان منشغلاً بتلك التفاصيل، كانت سمر منشغلة بتفاصيل أخرى، وكانت تراقبه عن كثب، وتهتم بأناقتها وتهندم ثيابها، وتنتظر جلوسه لتتوجه إليه وتجلس بجانبه لتحادثه، إلا أن امرأة في الأربعين من العمر أفسدت عليها مخططها، عندما جلست بجانبه بعد حركة بدلاً من المصافحة بالأيدي، وباتت تلك الحركة بديلة عن المصافحات، لخوف الناس من عدوى كورونا فايروس، وبدأت الحديث معه، بعد أن تعارفا، وغرقا في حديث ودي، مما أثار غضب سمر مرة أخرى، وكانت شبه منهارة، وتمنت أن تبدأ الحفلة، فتنتهي هذه (المهزلة)، نعم سمتها بالمهزلة؛ لأنه رغم تجاهلها، تصر أكثر على لقائه، لماذا؟ لاتدري، فقط لأنها تسمع صوت قلبها وتتجاهل حكمة العقل.

بموسيقى هادئة وصوت عريف الحفل، بدأت إفتتاحية المؤتمر، فجلس كل على مقعده المخصص، وجلست سمر أيضاً، ولكن الغريب في الأمر لا تزال تسترق النظرات بعينيها الخضرواتين الكبيرتين، تحت حاجبين أسودين رفيعين تشبهان زوج من الثعابين المخيفة، والأغرب من كل ذلك، أن وان بين فترة وأخرى ينظر إليها بإبتسامة هادئة، وهذا ما حيرها، هل يتكبر عليها؟، هل يتجاهل ما يجول في غياهب نفسها؟، ويعاملها كفتاة

عادية؟، أم أن هناك أمر آخر لم يخطر ببالها؟، دون أن تعلم أنه يبدد نظره في الفراغ، لكن إحتمال اللامبالاة كان سائداً؛ فإذا أردت أن تعرف فيما إذا كان الشخص المقابل يراقبك ويهتم لأمرك ضع يدك على فمك، وتظاهر بالتثاؤب ثم أنظر إليه، فإن تثاءب هو أيضاً فهو دليل قاطع على أنه يراقبك، قرأت سمر هذه القاعدة في كتابٍ لتحليل الشخصية وحركات لغة الجسد، إلا أن وان لم يقم بتلك الحركة رغم تكرارها من قبل سمر، التي حزنت حزناً شديداً، وغضبت أيضاً، وفي تلك الأثناء مرَّ بجانبها شخص يبدو أنه كان يعرفها، فنظر إليها مبتسماً بإبتسامة واسعة من أُذنه اليمنى إلى أُذنه اليسرى وظهرت أسنانه الأمامية كأسنان الأرنب، ونظراته تلعق ملامحها الطفولية بلزوجة، قائلاً: في عينيك الخضراوتين الحزينتين غرور أنثى، وكبرياء رجل، يكمن فيهما سر الوجود الأبدي، كفردوس توشحت أرضه بالخضار الندي، فملامحك الطفولية تجبرنا على أن نتأملها... لكنها لم تسمعه أبداً لشدة إنشغالها بغيره.

وبعد سلسلة من التكريمات والفواصل الغنائية، أعلن عريف الحفل عن فترة الإستراحة القصيرة، وطلب من الحضور التوجه إلى القاعة المخصصة، حيث أنواع من الفواكه والمعجنات والمشروبات الباردة منها والساخنة، موضوعة وبشكل لافت للنظر، فأخذ الحضور دورهم ليأخذ كل منه ما يطاب له ويشتهيه نفسه، ومن ثم التوجه إلى من يريد التحدث معه، وهي فرصة قيَّمة لعقد الصداقات وعلاقات العمل وغيرها. كذلك

سمر التي حاولت إستغلال الفرصة، التي يستغلها كل شخص ليتحدث بشكل غير رسمي مع شخصيات أخرى، وهم يتناولون الفواكه أو قطع البسكويت المقرمش، ويشربون الشاي أو العصائر الطازجة.

إلا أن وان خيَّب ظنها مرة أخرى، فشاهدته يتحدث بود مع كبار الشخصيات في الحفل، فحاولت هي أيضاً الإقتراب منه، إلا أن الفتاة الأردنية وزميلتها التونسية قد أثارتا غيرتها، فحاولت الإحتفاظ بماء وجهها وتظاهرت الإنشغال بهاتفها، تمتمت مع نفسها: أمري أشبه بجرح في يد أخرس نثرت عليه الملح، فإلتهب جرحه، وإشتهى للصراخ، فصرخ دون أن يسمعه أحد، لأنه أخرس. أو أنه كابوس مرعب، كلما حاولت النهوض، أو الصراخ، فلن يسمعني أحد.

وكانت صامتة، منزعجة، وها قد فهمت أن الوجم هي نهاية كل شئ فظ، وبعدها تبدأ حياة جديدة. والتي سمعتها من والدتها مرات عديدة. لذلك إبتعدت قليلاً، وهمهمت: سأرحل، فمن أرادني، يعرف الطريق. لكنها تراجعت سريعاً، وتذكرت قول والدها: الإصرار يصنع المستحيلات. إلا أنها ردت (قد)، فشعرت بتقويض آمالها.

وبإنتهاء فترة الإستراحة القصيرة توجه الحضور إلى مقاعدهم، إلا وان وبعض كبار الشخصيات، وكأن هناك إجتماعاً مهماً على هامش الملتقى، فأثارت غيرتها مرة أخرى، لذا قررت أن تبادر إلى محادثته وإستغلال إية فرصة ممكنة

للتودد إليه. إلا أن إنشغال وان فوَّت عليها جميع الفرص، فشاهدته آخر الأمر يتحدث إلى الموجودين في الحفل من العراقيين، ويتبادلون بطاقات العمل مع الإبتسامات الإجتماعية، ويلتقطون الصور الجماعية بأعلامهم الزاهية العلم العراقي وعلم إقليم كوردستان.

– صديقي، أأنت أيضاً!... قالها محجوب، الشاب النحيل، الأنيق، ذي اللحية السوداء الكثيفة، التي تغطي وجهه المدبب ذي البشرة السمراء.

– أنا ماذا؟!

– أترى تلك الفتاة؟!

– نعم، تصرفاتها غريبة؟!

– هل عرضت عليك إصطحابك إلى أكواريوم الشارقة، متحف الشارقة للحضارة الأسلامية، السوق الأزرق، نادي الشارقة للكولف والرماية، ومعالم ثقافية وسياحية أخرى، كي تقص عليك من أنباء نفسها وقصة نجاحها: إنها تختلف عن قصص جميع فتيات الطبقة الوسطى التي عاشت أيام شبابها في أوروبا، ودرست في أرقى جامعاتها، ومارست المحاماة لبعض الوقت، ثم إنصرفت إلى المهن الحرة والتجارة بمساعدة أخيها الأكبر الذي يدير شركة للعقارات والبناء.

– لا أبداً، هههه، لم أحظ بأي شئ من ذلك... وتلاعبت على شفتيه إبتسامة واثقة.

– هههه متأكد من أنك ستقتصد في حديثك إقتصاداً، ينتهي

بكما إلى البخل والتصحر في الحديث، مقارنة بما ترغبها من المواضيع التي تشتهي مناقشتها، لتغرقك به إغراقاً. ولكن يبدو أنك لم تلتقط الحبال التي كانت ترميها لإستدراجك إلى واحة أحاديثها، التي لابد وأن تسألها ذات مرة ولماذ أنا بالذات، دون أن تعرف أنك الواحد بعد المئة، فستقول لك: لا شيء سوى أنني أرتحت لك منذ الوهلة الأولى التي رأيتك فيها ... إنها لبقة جداً، وتختار كلماتها بعناية، وأما نبرة صوتها فستجعلك تذوب كالسكر في الشاي.

- هههههه، ولماذا لا تكون القهوة.

- إن كنت تحبها حلوة، فلا بأس بالقهوة.

- ما أشد فراغ رؤوس البعض، فأحياناً نتجاهل المضامين الطويلة من قراراتنا، عندما نركز على النتائج قصيرة الأمد، للإستعجال أو اللامبالاة، أو عدم التصديق، أو لضيق الوقت، فيبدو أنها من الأشخاص الذين يركزون دائماً على الأثر القصير، دون الأخذ بنظر الإعتبار التأثير بعيد الأمد. ودون أن تعرف أنها وحدها ستلظم الإبرة، لتخيط بها قلبها الممزق، فلا يهون عليها تركه وحيداً ممزقاً.

- يا أخي وهل بقي لها قلب، أو هل لها قلب أصلاً، أو يبدو أن لها مئة قلب.

أومأ برأسه متمتماً: سر الإنجذاب للشريك الحقيقي المهتم بك ويموت عشقاً من أجلك، هو غوصك في أعماق حبك لذاتك، أما النفور منه، فدليل على نفورك وكرهك لذاتك وحبك السطحي لنفسك. ثم قال:

- هل سمعت يوماً بشئ إسمه الحب المسرطن؟

- هههههه لأول مرة، وما هو؟

- لا أعرف، فقط سمعته من صديق لي.

وفي حديقة الفندق التقى بصديقه د. عرفان، وبدءا يتجاذبان أطراف الحديث، مستهلين بأخبار الفايروس.

- أترى يا صديقي ماذا حل بالعالم والبشرية جرّاء هذا الفايروس التافه، الذي لا يرى بالعين المجردة؟

- صديقي العزيز، علينا جميعاً، دولاً، ومجتمعات، ومؤسسات، وأفراد، عدم الإستهانة به، وفي الوقت ذاته أن لا نضخمه، ونعرف كيف نتعامل معه. وعلى المجتمع الدولي أن يتعاون مع بعضه ويقوم بتفعيل الإتفاقيات الدولية وبروتوكولاتها، ويسخر جميع إمكاناته في المجالات كافة لمواجهته، فالعالم على أعتاب وباء عالمي أخطر من الموت الأسود. ولكنني أشك في مقدرة بعض الدول في ذلك، بسبب امتناع بعض الشركات الكبرى، التي ستجني أرباحاً طائلة مستغلة الوضع. وأعتقد أن دولاً ذات إمكانات ستستخدم دبلوماسية الفيروس، وبشكل أدق دبلوماسية كورونا للتمدد جيوسياسياً، عن طريق سياسة السخاء، ولعب دور الشريك المسؤول والموثوق، والقائد لجهود مكافحة الوباء حول العالم أجمع، في حملة يمكن أن نطلق عليها بـ (دبلوماسية الكمام)، والقيام بالمسؤولية الذاتية عن إنتشار الفيروس، لتتموضع على رأس قمة النظام العالمي.

- ونحن كمدربي التنمية البشرية، يجب العمل على تكثيف الجهود والتعاون مع الجهات الرسمية وغير الرسمية لتوعية الناس، وسنسخر جميع إمكانياتنا لمواجهته، وأما ما بعد الكورونا فلكل حادث حديث.

بما أن الوقت كان متأخراً جداً، فقد وعد وان صديقه القيام بما يستلزم، وتمنيا لبعضهما ليلة سعيدة ورحلة موفقة والعودة إلى الوطن سالمين، فافترقا، كل عاد إلى محل إقامته. وكان وان في طريق العودة إلى الفندق ينظر من خلال النافذة سيارة الأجرة الى النجوم، وكأنها ثقوب في ثوب قديم مهلهل، ويتحدث في نفسه مع سمر: لا تحزني عزيزتي هناك وجه آخر لكل شئ، كما للإنسان وجوه، فللحزن أيضاً وجوه، بعضها سيئة ومضرة للغاية، لا يمكن تحملها، وبعضها الآخر ودودة تواسينا، فنتخذها كهوفاً مخفية نلتجئ إليها عندما نحتاج إلى التفريغ الإنفعالي، أو مسارح نجري على خشبتها حوارات تمثيلية من تأليفنا وإخراجنا، فنمثل فيها دور الضحية أحياناً، ودور البطل أو حتى الكومبارس أحيانا أخرى، وتارة نسترجع فيها ذكرياتنا الجميلة والحزينة. نهرب إليها من الواقع المرير، لنلتقي فيها من نحب، نحاور من لم يتغير، دون أن نجرحهم؛ لذلك لا تدعوا الآخرين يسلبون حزنكم بمزجها بعبارات مصطنعة لا مشاعر إنسانية فيها، فيصبح حزنك فيما بعد شعوراً مشوهاً، لا رونق فيه ولا معنى ولا إحساس تجاه الفكرة أو الحدث أو الشخص المحزون.

ويبدو أن السائق قد سمع كلمة الحب والحزن؛ فتصور أنه أُصيب بخيبة أمل، وقال مواسياً: نحن لا نكرههم، بل نكره الإنتظار، الإستغفال، الخذلان، عدم الإهتمام، الرحيل، الفقد، خيبة أمل. وتوقفت السيارة أمام الفندق.

بوصوله الغرفة، شعر أنه يحتاج حماماً ساخناً، يزيل عن كاهله متاعب يوم حافل، ويتخلص من بعض الأفكار المزعجة، وبعد الخروج من الحمام تحدث مع زوجته لبعض الوقت، التي أوصته كالعادة بأن ينتبه لنفسه، ثم غط في نوم عميق. وبما أنه كان على موعد مع نفسه للتنزه في الساعة الثامنة صباحاً، فقد سبق المنبه إلى ذلك، وأعد نفسه لزيارة أماكن أخرى في تلك المدينة الساحرة، فجعل أقدامه تقوده كيفما بدت لها، وأطلق العنان لرأسه بحفظ المشاهد التي تلتقطها عينيه، كي يتشرب تلك الدولة التي طلما سمع عنها، سواحلها المواجهة للخليج، مراكز التسوق المزدحة، الحدائق الناضرة، المراكز الثقافية المكتظة، دور العبادة، المعالم السياحية، محلات بيع الهدايا، المحلات السكنية المزدحمة وخصوصاً الهندية والباكستانية والكشميرية، فكان الناس في وادٍ وكورونا فايروس في وادٍ آخر، وكأنه وعدهم بعدم إصابتهم؛ لأنهم عانوا مرارة الحياة بما يكفي فليس من العدل أن يعانوا منه أيضاً، لكنه كان منطقاً خاطئاً، فلم يكن أحد بمأمن منه.

وكان مخطئاً أيضاً بممارسته هوايته المفضلة عند زيارة دولة ما، بتذوق الأطعمة الغريبة واستكشاف المدن التي يزورها،

فزار مطاعم عدة وتناول فيها الاكلات الغريبة وزار أيضاً مراكزها التجارية والثقافية دون أي إعتبار للفايروس المستجد الذي أرعب العالم.

في إحدى تلك المراكز التجارية، أثار فضول عاملٍ هنديٍ، يستعد للعودة إلى منزله؛ بعد أن أنهى عمله في المركز ذلك اليوم، فقد شاهده يتأمل التفاح المعروض لفترة غير قصيرة، فاقترب منه، وقال له باللغة الإنكليزية:

- هل هناك مشكلة؟

- كلا، لكن التفاح المعروض هنا يشبه التفاح الذي نزرعه في إقليم كوردستان - العراق.

- هل أنت من العراق؟.

- نعم، هل سمعت بإقليم كوردستان؟

- نعم، إنه مثل هندستان... إنتهى عملي اليوم وسأرجع إلى بيتي.

- وأنا أيضاً تعبت اليوم وسأرجع إلى الفندق.

- أين فندقك؟.

- في منطقة أبو شغارة.

ضحك قائلاً: نحن الآن في أبو شغارة، إنها منطقة كبيرة وواسعة، أين بالضبط؟

- بالقرب من مركز الصحيح الطبي.

ابتسم قائلاً: وأنا أيضاً أسكن بالقرب من ذلك المركز، إن أردت سنذهب معاً، إنه قريب، خمس دقائق فقط مشياً على الأقدام.

أومأ برأسه موافقاً. ثم قال: شاهدت العديد من الأفلام الهندية، فهناك الكثير من الأشياء المشتركة بين الهند وكوردستان، أعراف، عادات، تقاليد، قيم، وأسلوب الحياة.

- حقاً، أعتز بذلك. ستفرح بذلك زوجتي كثيراً، إذ أرغب أن أعرّفك بها، إن لم يكن لديك مانع.

- لا مانع لدي.

لحظات واندمجا في حديثٍ استهلهاه بالفايروس، فالكل مشغول به، الأشخاص، الإعلام، السياسة، التجارة.

- لم تسجل هند إلا حالات قليلة، رغم قربها من الصين، وعلاقاتها التجارية، كذلك سكانها البالغ المليار والنصف.

- وما السر؟

- لا أعرف السبب، إلا إنني على إتصال مستمر بأهلي وأصدقائي... لقد وصلنا.

توقفا أمام عمارة كبيرة، في مكان مألوف لوان، إذ كان بجوار الفندق الذي يقيم فيه، كان قد مر من أمامها عدة مرات، لوجود الكثير من المطاعم ومراكز التسوق في تلك المنطقة، فكان من النوع الذي يحاول إستكشاف المنطقة التي يقيم فيها بالتدريج.

صعدا طوابق العمارة عن طريق السلالم، لافتقارها المصاعد، وكان هناك الكثير من سكنة البناية، وهم يسلمون

عليهما، فتابعا حتى وصلا إلى الطابق السابع، حينها شعر وان بتعب شديد.

- وصلنا

ودق باب الشقة رقم 28، ووان يتنفس بصعوبة بالغة، مع كحة جافة وارتفاع في درجة الحرارة لشدة تعبه، لاحظه يفتح باب الشقة بالمفتاح دون الطرق، وبمجرد فتحه لم يجد وان من يستقبلهم، فتحجج بأخذ قسط من الراحة قبل أن يدخل الشقة.

- دعني آخذ نفساً.

- يبدو أن إنجلي غير موجودة، آه يا إنجلي، كم مرة قلت لك حال إنتهاء عملك إرجعي إلى البيت ولا تتأخري؟ أو إتصلي بي، فكان من المفروض أن تكوني في البيت قبل ساعة من الآن.

- ها قد عدت!، كان من المفروض أن تكوني في الشقة قبل ساعة؟ هل هناك ما يجب أن أعرف؟

وكانت إنجلي تنظر إلى وان وتلتفت إلى زوجها، وكأنها تسأله من هذا الذي بالباب؟ فقدمه راج:

- وان، من كوردستان.

- مرحباً، إنجلي.

تبددت شكوكه ومخاوفه، فدخلوا الشقة، وكانت مرتبة جداً، مفروشة بأثاث أنيق، صور أكاليل الورود في كل مكان تقريباً، جلس وان، وبدأ راج بالتحدث، حول مسائل كثيرة

كالعادات والأعراف والتقاليد الإجتماعية، وتحولا إلى السياسة، ومن ثم الطبقات الإجتماعية وأسلوب الحياة، بينما إنجلي تعد الشاي الهندي المعالج للإنفلونزا التي أصابت وان، ومن ثم تحول الحديث إلى الزواج وقدسيته، بينما إنجلي تعد طعام العشاء، قصت حكاية زواجها براج التي كانت أشبه بالأفلام الهندية.

- تعرضت قريتنا لوباء خطير، ومرضت، وكان راج في الخليج يعمل لجمع بعض المال، نستطيع بها بناء كوخ طيني، نعيش فيه. وتم عزل القرية عن باقي المناطق، ولم يكن يسمح لنا بالخروج منها، فكانت أشبه بحجر صحي كبير، فمن في الخارج يستطيع دخولها، ولكن لم يكن يسمح له بعد ذلك بالخروج مجدداً. فخابرت راج ورجوته أن لا يخاطر بحياته، وأن يبقى حيثما هو، ولا يعود إلى الهند، إذ لا يسمح بالخروج من القرية المحاصرة والمقطوعة عن العالم سوى المكالمات الهاتفية، وحتى الرسائل المكتوبة منعت عنها، خشية انتشار العدوى إلى القرى المجاورة. إلا أن راج أصر على العودة قائلا: إن متِ فعلى الأقل سأكون بجوارك، وسأكون مرفوع الرأس مدى الحياة، وإن متُ فهو قدري، لن أتخل عنك. وخاطر بحياته وعاد ليبقي إلى جانبي، يقدم لنا ما يلزم.

وكان باستطاعته أن يختار فتاة أخرى من قريتنا أو أية قرية محيطة بنا، اللاتي كنَّ تلاحقنه، إلا أنه اختارني من بين جميعهنَّ، وكان إلى جانبي دائماً، فهو لي الصديق الوفي والحبيب المخلص. وقد أصيب هو أيضاً، إذ نقلت له العدوى التي أصابتني

قبله، بعد مدة من الزمن، وبعد معالجتنا من قبل الحكومة وسيطرتها على الوباء المنتشر في القرية، والقرى المجاورة، وتماثلت للشفاء، لكن مات والدي ووالدتي وجميع إخوتي وأخواتي، فشفائي كانت معجزة، وبقي لغزاً مبهماً. ونجح في محاولة إيجاد عمل لي في الإمارات، فسافرنا ونحن نعيش هنا كما ترى. ولكن تبدو أحداث قصتنا بطولة حين نتحدث عنها، لكنها عادية جداً لغيرنا، لأنهم لم يعيشوا مشاعرها، وحدها قلوبنا ترى ما لا يراه غيرنا. ثم أردفت قائلة: ولكن يبدو أن قصتنا ستتكرر عشرات المرات في الهند وغيرها من البلدان، ونحن الهنود أو سكان الهند قد عرفنا كيفية التعامل مع هكذا ظروف، وعرفنا أن هناك سر بسيط وراء عدم تفشي عدوى كورونا فايروس في الهند، يكمن في أسلوب حياتنا الغذائي، وخاصة الفلفل الهندي الحار. إلا أن التوقعات تشير إلى أننا على أبواب كارثة... وقبل أن تنطق كلمتها الأخيرة، قاطعها راج.

- لا سامح الله.

سمعها وان بعقله الباطن قبل آذانه، ورن صداها في كيانه (الكبرى...، الكبرى...، الكبرى...) فأحس بقشعريرة، سرعان ما شعر بها راج وإنجلي، وتبادلا النظر، كإشارة على التضامن الإنساني في زمن الكوارث.

- الناس هنا كرماء طيبون، لم أشعر يوماً بالغربة، بل أحس كأنني بين أهلي.

- نعم راج لاحظت ذلك.

تحدثوا قليلاً عن الكرم والطيبة، فشعر وان بالنعاس، وتذكر أنه يتوجب عليه أن يحضِّر نفسه للعودة من الإمارات إلى كوردستان، فإستأذن منهما قائلاً:

- استمتعت بالحديث معكما، وأشكركم على حسن الضيافة.

- أرجو أن نبقى على التواصل.

- يجب أن تقطع لنا وعداً بالتواصل، وزيارتنا مستقبلاً، وأن تجلب عائلتك معك في الزيارة القادمة، أو تزورنا في الهند.

في طريق العودة، وفي المطارات التي مر بها، لاحظ التعليمات الصارمة والإجراءات المشددة، والتصرفات الغريبة للناس، وخلو المطارات تقريباً، وصادف أناساً كثر، ولكن ما لفت انتباهه فتاة كانت تطيل النظر إلى الطائرات المحلقة في السماء، بطريقة تدعو للاستغراب، من خلال نافذة قاعة الإنتظار، وتتحدث إلى نفسها، فتاة محجبة أنيقة تمسك حقيبةً كبيرة وفي يدها الأخرى حقيبة نسائية صغيرة، ظهر أنها تكمل دراستها الجامعية العالية في إحدى دول جنوب شرق آسيا، وبالقرب منها عائلة مكونة من امرأتين وشاب لم يصل إلى عقده الثالث، ينظر إلى وان الذي كان يقرأ كتاباً يشغل به نفسه. ولكن ما أثار امتعاضه قول الفتى: أكره أولئك المتفلسفين التافهين الذين يقرأون في المطارات، خصوصاً الشباب، أليس من الأفضل لهم أن يتجولوا في المطار؟، ويستمتعوا بوقتهم، أو يبحثوا عن فتاة للتعرف عليها، فضحكوا جميعاً باستهتار.

ثارت ثورته، لكنه فضّل كظم غيظه، وتجاهلهم، دون أن يعرف

بواعث ذلك الشعور، ولكن يبدو أن للأقدار جانبها الخفي، التي شاءت أن تجلس إلى جواره امرأة أربعينية، تمسك بيد طفل في الثالثة من عمره، يصرخ بشدة، فتشير بعينيها إلى وان وتقول للطفل: عمو الدب، سيأكلك عمو الدب.

- اللهم صبراً جميلاً، من متفلسف تافه إلى عمو الدب. لم أتخلص من أؤلئك بعد، حتى جاءت هذه.

فتماسك نفسه، ونظر إلى الطفل قاطباً حواجبه، فسكت برهة، ثم صرخ ثانية.

- عمو الدب.

- بما أنها ستصبح ذكرى، وتطالها يد الزمن لتطويها فتصبح في خانة النسيان، أو ستلتصق بالذاكرة ويكون لها قيمة، فما من مشكلة؛ لأننا في كثير من الإحيان لا نشعر بقيمة اللحظة إلا عندما تصبح ذكرى. كلمات صدرت من دون صوت، لأنه كان ينظر إلى الفتاة المحجبة تجلس إلى جانبه، حيث أثار فضولها ما كان يحدث.

- مرحباً.

- أهلاً وسهلاً.

سرعان ما أدركت الاربعينية أن عمو الدب يفهم لغتها، فانتصبت وجرت المشاكس خلفها دون أن تلتفت.

- حان موعد الإقلاع.

- نعم يبدو ذلك.

توجها مع بقية الركاب إلى الباص المخصص لنقلهم إلى الطائرة، ووقفت قبالته، وكان يلبس بنطالاً بنياً فاتحاً وتيشيرتا زيتونياً، ويحمل حقيبة ظهر، عدا وان والفتاة وتلك العائلة، فقد كان جميع الركاب من الهنود والبنكلادشيين العاملين في المنازل والشركات الخاصة في إقليم كوردستان.

استغرق صعود الركاب نحو عشر دقائق، خلالها كانت الفتاة ترمقه بنظراتها الحادة، والشاب يختلس النظر إليها، والتي كانت تكبره بنحو عشر سنوات، وعندما حاولت الفتاة الإقتراب، إقترب منها الشاب.

– إنه بنكلاديشي، أو هندي، وقد يكون مصاباً بالكورونا.

– وهل يخصك الأمر؟ ردت عليه بوجه ناشف خشن، لم تترك للوداد سبيلاً.

– إنه الفضول. دون أن يلين له وجهه.

فتعجب الشاب وبهت، والتفت إلى عائلته، ولم يعرف كيف يتصرف، فانسحب بطريقة دراماتيكية مقترباً من عائلته هامساً للمرأتين، وبدى إنه كان يقول لهم إنه كوردي، حتماً كان يفهم كل ما نقوله في القاعة، أي موقف هذا الذي أنا فيه. وكان لسان حال وان يقول: لو تعلم نصف البشر عدم التدخل فيما لا يعنيهم، لعاش النصف الآخر بخير. والآن فهمت شعوري، فالصمت متعبٌ جداً يا صديقي لكنه أسمى وسائل الرد، وأكثرها فتكاً.

أما الفتاة فقد إقتربت أكثر، وعدّلت حجابها، وقدّمت نفسها:

آمال، أدرس الماجستير في كوريا الجنوبية، والآن في الإجازة الدراسية، وسأرجع بعد شهر لمواصلة دراستي.

– وان، أُستاذ جامعي، كانت توقعاتي في محلها، ثم أغمض عينيه، محاولاً إعادة أفكاره إلى نصابها، وإعادة ترتيبها... واسترجع جملة كادت أن تخرج وتثير مشكلة.

شعرت آمال أنه أخفى شيئاً أراد قوله، لكن وصولهم إلى السلم ألهاها عن السؤال. فصعدا الطائرة وأخذ كل راكب مكانه، ولقلة عدد الركاب، وخلو الكثير من المقاعد، طلبت آمال من المضيفة إن كان بإمكانها تغيير مقعدها؟ للتوجه إلى مقعد فارغ بجانب وان الذي كان مغمض العينين، مستمعاً إلى صوت الناي الحزين، الناي الذي يرقص على أنغامه المتصوفة، ولم يفتح عينيه إلاّ بعد مضي ساعة من الزمن، إذ إنتبه إلى وجود آمال جالسة على المقعد الذي بجانبه، فرحب بها وتأسف بأنه لم يكن يعلم بوجودها، حيث كان فارغاً في البداية، وأنه كان غارقاً في تأملاته مستمعاً لألحان الناي الشجية، التي تأخذ الروح، والعقل والقلب والأحاسيس والمشاعر، إلى عالم آخر، عالم الهدوء، والسرور والغبطة، عالم التأمل الذاتي، عالم لا يتدخل فيها أحد بخصوصيات غيره، عالم لكل شئ فيه قيمته، عالم كل من فيه منشغل بحياته كجزء لا يتجزأ من مجتمعه، عالم فسيفسائي جميل بوجودهم جميعاً تتشكل لوحة إنسانية جميلة، تسر الناظر، وتريح القلب وتهدئ النفس، لو إنسحب أحدهم لشعرت بنقص أو عيب في اللوحة.

- هل أنت صوفي.

ضحك وان ملئ فمه مقهقهاً، وعدّل جلسته، بعد أن دفن جسمه في المقعد، ومدد رجليه ووضع يديه خلف رأسه.

- لست صوفياً وإن كنت معجباً بأسلوب حياتهم، وتأخذني موسيقاهم إلى عالم آخر، عالم تزكية النفوس، وتصفية الضمائر، وصفاء القلوب، ويجب أن تعلمي أن للمسلمين متصوفتهم، كذلك المسيحيين، واليهود، والبوذيين وجميع الأديان تقريباً، حتى قيل أن التصوف لا علاقة له بدين معين بل يجمع أحكاماً من جميع الأديان.

- بعد أن سمعت منك عن الصوفية، أعتقد أنني أحتاج إلى يومٍ لصفاء ذهني؛ فقد إختلطت عليّ الأمور.

- أنت على حق، البسطاء أمثالنا يجب أن يبقوا على بساطتهم.

فبدآ يتجاذبان أطراف الحديث عن الأمور العامة، دون التطرق للخصوصيات. وتحدثا عن الحياة في الغربة، المناهج الدراسية في كوريا الجنوبية، التطلعات المستقبلية، وكانت تحاول التطرق للأمور الشخصية، لتذكر له أسباب ابتعادها عن زوجها ونيتها في الطلاق؛ لأنه تغيَّر فجأة.

- فأحس أنه لم يعد يحبني، وأشك في أن هناك شخصاً آخر في حياته.

- لا أحد يتغير فجأة من تلقاء نفسه ومن دون أسباب، كل ما

في الأمر أننا في لحظة ما، نغمض عين القلب ونفتح عين العقل، فندرك بعقولنا حقائق لم نكن نعيها بقلوبنا، أي أنه كنّا ننظر إلى الأشياء بعاطفية، ومن ثم حوّلنا النظر إليها بعقلانية؛ لذا يجب أن نوازن فيما بين العقل والعاطفة، ومن ثم من سيحسم الأمر؟ أنتِ أم هو؟ قد تكوني أنتِ سبب تغيره، وما أحاسيسك، وظنونك وشكوكك إلا أوهام اختلقتيها من تلقاء نفسك، لا وجود لها في الواقع. ويجب أن تعلمي أننا لا نتغير بل نستوعب. إنها عقدة نفسية ومرض اجتماعي، ومن ثم إنني على يقين أن زوجك يهتم بك كثيراً.

- ما الذي يجعلك متيقناً من ذلك.

- توهجك، وحيويتك، وتفاؤلك، وطموحك، فلولا إهتمامه، لأصبحت امرأة إعتيادية لا طموح لها، غير متفائلة، فقدت حيويتها وتوهجها.

- جعلتني أفكر في حياتي وأعيد النظر فيها.

- تذكري أن المرأة الحقيقية يجب أن تكون كالقهوة.

فبدت وكأنها في مفترق طرق، تستفسره عن علاقة المرأة بالقهوة؟!، أو عن شعورها الغريب وهي تشاهده يكلم نفسه في الباص؟!، أم مصدر توهجها؟!. فقررت الاستفسار عنها جميعاً بالتتابع.

- هل لديك مشكلة؟! لأنني لاحظت أنك تتحدث مع نفسك في الباص؟!

– الحديث مع النفس دلالة على إكتمال العقل، فالجنون هو حديث مع بشر رؤوسهم كالحجر.

فهزت رأسها موافقة، ورغم تساؤلاتها الكثيرة، إلا أنها تجاهلته.

– وما هو مصدر التوهج برأيك؟

– الإهتمام، ومهارات التواصل، فهناك تواصل بالعيون، بالايماءات، بالحركات، وهناك ما يسمى بلغة القلوب، حروفها دقاتها ونبضاتها، ومن ثم هل تعرفين أن هناك شيئاً اسمه التواصل بالظل؟!.

– يبدو أن فرصاً كثيرة قد فاتتني في الحياة، يجب عليّ تداركها.

– أمامكِ متسع من الوقت لتتعلمي، إن حولتي بوصلة إهتمامك إلى نفسك ومن حولك. وإلا فأعمار البشر كلهم لن يكفيك.

– وكيف تكون الأنثى كالقهوة؟

– القهوة ليست إلا امرأة قاسية صعبة المراس، يتلذذ بها الرجل أولاً مع السكر، ثم مع قليل من السكر، وبعد إدمانها يشربها حتى لو كانت بدون سكر، ثم حتى وإن كانت مرّة فسيشربها لأنه أدمن عليها، وبعدها ورغم مرارتها لا يستطيع أن يفارقها، بل وسيدمنها أكثر حتى تصبح جزءاً أساسياً من حياته، ومن ثم تصبح الحياة بعينها ... هكذا يقولون.

فتعجبت آمال من تلك المقارنة والتشبيه، وأدركت أن جزءاً من الخطأ يكمن فيها، ويتوجب عليها تداركه قبل فوات الأوان، لذا قررت حال وصولها المطار، الإتصال بزوجها كي يأتي لاستقبالها، وتعرَّفه به، وعرضت الفكرة عليه، فرفضها متحججاً بأن عليها أن تستقبل زوجها وحدها، فذلك سيزيد من مشاعر الإنجذاب الروحي بعد الغربة الطويلة. ثم قال لها: هناك مسافات شخصية غير قابلة للنقاش، تفصلها حدود مقدسة، وهناك ميول لكل شخص يجب على الآخرين إحترامها، ويجب أن نقتنع أن الجميع أحرارٌ بما يفعلون، في حدود القانون والآداب العامة، حتى ولو كنّا نراهم مخطئين. وأخيراً، وحفظاً للكرامة: إعترفي له بكل شيء في الأول من نيسان، فإن تقبلك كما أنت، فخير، وإن لم يتقبلك، فقولي له: إنها كذبة نيسان. ومن ثم عليك أن تغيري الكثير من عاداتك إن كنت حقاً تحبينه، لأن الحب مسؤولية قبل أن تكون علاقة.

****

فرق فحص العائدين كانت منتشرة في جميع الأماكن وعلى البوابات، بأجهزتها وملابسها، في مشهد مرعب وكأنها سرايا عسكرية مدججة بالأسلحة المتطورة على أهبة الإستعداد لمواجهة العدو الفتاك، كورونا فايروس.

تم فحص وان كبقية العائدين، دون أن يشير الجهاز إلى أي شيء مشكوك فيه، إضافة إلى فحوصات أخرى، بأجهزة متطورة، وكان جميع الركاب من غير حملة الفايروس، فقبل

ساعات تم إجراء فحوصات لهم في مطار دبي، والإجراءات المتبعة في الطائرة أيضاً كانت فعَّالة وسلسة، وكان ذلك مبعث سرور للجميع.

بُعيدَ وصوله، تحدث وان كعادته عندما يعود من السفر، دون أن يأخذ قسطاً من الراحة، تحدث إلى عائلته وأصدقائه عن مشاهداته، وتطرق إلى قصة راج وإنجلي التي تشبه قصص البوليود شبه الخيالية، وقصة سمر، ومن ثم قال: إنها قصصنا جميعاً، لا تختلف كثيراً عن أي زمان آخر، ثم قارن بين قصة شيرين وفرهاد، مم وزين، روميو وجوليت، قيس وليلى، وقصص أخرى أيام طاعون وهران، وقصص المحبين في ووهان، والحب في زمن الكوليرا، فجميعها متشابهة تقريباً إلا في بعض التفاصيل التي يصنعها أبطالها.

في الصباح الباكر، شرب كوباً من الحليب مع حبة تمر وملعقة عسل كالعادة، وحمل حقيبته، ونظر للمرة الأخيرة إلى شعره المجعد من خلال المرآة، ثم أقفل الباب وركب سيارته متوجهاً نحو الجامعة، وفي الطريق أشغل المكيف ثم المذياع، واستمع إلى الأخبار، وكان الخبر الأول حزيناً، فلم يعجبه.

- في الصباح الباكر تذيعون هكذا أخبار...

فحولها إلى موجة أخرى، واندمج في الحال مع كلمات أغنية (مفيش مرة) لشيرين عبدالوهاب:

مفيش مرة تقربلي تطمني

يللي حاببني ليه قلبك بيظلمني

كل ما أحبك منك بتحرمني

يبقى ده إسمه كلام

عشان خاطري تكلمني فهمني

ولإندماجه الشديد مع كلمات الأغنية ولحنها الجميل، وصوت المطربة العذب، كان يحرك يديه وكأنه هو الذي يغني وينشد الكلمات، فكان شارد الذهن مع شيرين، حين توقف لا إرادياً عند إشارة المرور الحمراء، دون أن يلاحظ وقوف سيارة سوداء فاخرة بجانبه، تقودها فتاة في الثلاثين من عمرها، بالغة الجمال والأناقة يتلون الهواء عندما يمر بوجهها لكثر استخدام المكياج، تنظر إليه بعينين براقتين تشتهيان الحديث لشدة فضولها. وما شد إنتباهها، إندماجه مع أغنية لم تكن تسمعها. وكأنه يقول: عزيزتي أنا رجل من الزمن الجميل، فإن لم تجديني هنا، فإنني في خلوتي.

بعدما توقف عن ترديد كلمات الأغنية، نظر ملياً إلى الإشارة الحمراء، ثم ساعته اليدوية، والتفت الى جانبه فرأى صاحبة السيارة السوداء، وهي تنظر إليه مبتسمة، فأنزل نافذة السيارة ليراها بوضوح ظناً منه انه سيعرفها، لكنه لم يعرفها، فسلمت عليه، وكان صوتها غريباً، كما صورتها ووجهها وشخصيتها غريبة عليه أيضاً.

- أحسدك على حالتك النفسية، تفاؤل في هذا الصباح.

تذكر عبارة كان يرددها دائماً في دوراته حول الراحة النفسية،

تخفيف الضغوط اليومية، والتفاؤل: (إبتسم ودع كل من حولك يبتسم لأجلك، إبتسم فإن في الإبتسامة راحة وصحة، إبتسم ودع الحياة تشرق لك بألوانها الزاهية، إبتسم ودع الفرح ينعش روحك). فإبتسامته جعلت الفتاة تبتسم لأجله.

- أريد أن أقابلك.

- إتبعيني... وهمهم في نفسه، لنرى إلى ماذا تريدين أن تصل.

فأتبعته وتوقف إلى جانب الطريق في المكان المخصص للوقوف، ونظر إلى الساعة التي كانت عقاربها تشير إلى الثامنة صباحاً، وكان عليه أن يكون في القاعة الدراسية الساعة الثامنة والنصف، وكانت المسافة المتبقية تستغرق نحو عشر دقائق فقط، وأضاف عليها خمس دقائق أخرى كاحتياط. والتفت فوجد الفتاة تسلم عليه.

- هدى، سيدة أعمال، صاحبة متجر الألبسة النسوية في المتجر الكبير.

- وان أستاذ جامعي.

- تشرفت... لن آخذ من وقتك الكثير، لكن يبدو أنك مستعجل وأنا أيضاً فى عجالة من أمرى، فقط أرغب في لقاء لاحق، وهذا رقم هاتفي وأنتظرك.

****

في صباح اليوم الثالث، بينما كان يتفقد جيوب قميصه، أحس

بشيء غريب، بطاقة شخصية من النوع الراقي، نظر إليها، فتذكر هدى، وكأنما سكب عليه جرة ماءٍ بارد، إذ نسي الإتصال بها.

- مرحباً هدى، كيف الحال، أنا وان، كان عليّ الإتصال بك...، وقبل أن يقول ونسيت ذلك، حبس أنفاسه، وكلماته، واستبدلها بعبارة (ولكنني كنت أنتظر الفرصة المناسبة).

- لا مشكلة، إذاً وجدتها.

- هل بمقدورك أن تأتي إلى الجامعة؟.

- نعم بعد ساعة تقريباً، أيناسبك ذلك؟.

- لا، بعد ثلاث ساعات.

- لا مشكلة، وقتي بيدي، سأخبرك حال وصولي.

صعدت السلالم، ورأت مجموعة من الطلبة، سألتهم عن مكتبه، فأشاروا إلى غرفة صغيرة، توجهت إليها فرأته يتحدث مع طالبة بصوت منخفض بعض الشئ:

- نازك، ستكونين بخير، فقط تابعي العلاج وثقي بنفسك.

- إنشاء اللّه... شكراً دكتور.

وسمعت صوت فتاة تقول له: دكتور، لقد حان موعدك، سأعمل لكم الشاي، وكأنه أعلمها بموعد مهم له مع فتاة وصفت لها.

وبعد أن إنفض الجميع من حوله، سلمت عليه هدى، فقام من مقعده مرحباً بها، ودعاها للجلوس، فجلست وهي تقرأ

عبارة على الجدار فوق رأسه (مختصر الحياة: المتشائم يشتكي من الريح، والمتفائل يأمل في توقفها، والواقعي يعدل الأشرعة). ما إن أنهتها حتى سمعت صوتاً: أتشربين الشاي أم شيئاً آخر.

- شاي من فضلك، وأدارت وجهها له: سكرتيرتك جميلة.

فقهقه وان، وكفكفت الطالبة، وكانت تنظر إلى وان، ثم علمت أنها تعد الشاي، فأكملت عملها.

- إنها شيرين طالبتي في المرحلة الرابعة، أشرف على بحثها، وهي تعد لي الشاي كرشوة (مازحاً)، بعد أشهر ستكون مدرسة في إحدى المدارس، تعد أجيال المستقبل، وتعلمهم مبادئ حقوق الإنسان والتعايش السلمي مع الذات أو مع الآخرين، أو ناشطة مدنية توجه أفراد المجتمع وتدافع عن حقوقهم وتحل مشاكلهم.

بدأت شيرين بإعداد كوبين من الشاي... وارتسم على مُحياها إبتسامة مشرقة.

تجاذبا أطراف الحديث، وانتقلا من موضوع إلى آخر بسطحية مفرطة دون الخوض في التفاصيل، حتى البسيطة منها، وتفاجأ بسماع عبارة لم يكن يتوقع سماعها، أو على الأقل سماعها الآن في أول لقاء: أتدري عندما رأيتك أول مرة صباح ذلك اليوم، لم أكن أعرف بأنني سأتأثر بك هكذا، وبهذا القدر، والآن إزددت إعجاباً، وأتوق للقاء آخر، رغم أننا التقينا للتو. إذ كان تفكيرها مستقبلياً تريد لقاءات أخرى غير اللقاء الآني.

- حسناً... ولم يكن يوافقها الرأي، بل كمحاولة لإسكاتها أومأ برأسه كدليل على الموافقة. ونظر إليها وفي رأسه ألف

علامات إستفهام، رافعاً حاجبيه، ونظر إلى شيرين وهي توضع كوب الشاي أمامه، متظاهرة أنها لم تسمع شيئاً، وكأنه يطلب منها أن تكتم ذلك، ثم نظر إلى الحديقة القريبة من البناية من خلال النافذة المطلة عليها.

- يوم جميل، وأرواحنا محجورة في تماثيل هشة، منزوعة المشاعر، محجوزة بين هذه الجدران. ويقول في نفسه: مزاجي قد يكون صعباً، وقراري قاسي أحياناً، لكنني لا أوهم أحد بالحب كذباً. وكأنه تجاهل قولها، وارتشف الشاي، ورفع صوت سماعة هاتفه ليسمع صوت المغني المشهور وائل جسار:

لو عشت بعدي وبعد بعدي وجيت وحبيت
أبقي إفتكرني وأحكي عني مهما كنت نسيت
خليني ذكري جميله عندك وأوعي تنسي زمان
خليني ذكري جميله عندك وأوعي تنسي زمان
ماتقولش حبي وقت عدي ويوم خلاص عشناه
قول اني حبي حب غالي بس هي حياه
وأبقي افتكرني بكلمه حلوه تنسي قلبي الاآآه
خلي الفراق أجمل فراق ف دنيا العاشقين

وينقر بأصابعه طرف المنضدة حاملاً بيده الثانية كوب الشاي، دون أن يرتشفها، مما دعت شيرين تنتظر ردة فعله، هل هي حلوة أم مرة، لأنه يحبها حلوة. وبعد رشفتين وزفير عميق، قال: هدى أنت أنيقة حتى بصراحتك، إنه الإعجاب ليس إلا، والفرق بين الإعجاب والحب هو أن الأول نرى فيه كل شيء

جميل، حتى إذا ظهر منه تصرف غير متوقع، سقط من أعيننا، أما الحب فهو قبول المحب بكل ما فيه. فلو فكرنا بقلوبنا وشعرنا بعقولنا، لاختلف الأمر جذرياً؛ لأن للحقيقة وجوه، ونحن لا نراها إلا بوجه واحد. والتفت فلم يجد سوى شيرين تقول له: لم أفهم شيئاً... وكأنها لاحظت أن أموراً غامضة دارت بين الدكتور وضيفته.

فرد عليها مبتسماً: مرغمون على العيش في واقع لا يتناسب مع مشاعرنا لا يتناسق مع أحاسيسنا، واقع مقاسه مختلف جداً عمّا نرغب أو نريد، إنه مسار من مسارات القدر الذي يخبئ لنا الكثير، ويغير من حياتنا الكثير، فنساج الأقدار ينسج خطوط أقدارنا بمهارة في الخفاء دون أن نعلم بما يخفيه عنا حينها لا نعي هل إننا مسيرون أم مخيرون. وبدأت شيرين بالكلام كعادتها، ولكي يتجنب ثرثرتها، طلب منها إعداد كوب قهوة له، وأخذ رواية ((لن أمنحكم كراهيتي))، وقلب صفحاتها إلى أن وصل إلى الصفحة الثامنة حيث إنتهى منها يوم أمس وبدأ يقرأ بصوت خافت. فبحضور القهوة والكتاب والهدوء تشعر وكأنك ملكٌ متربعٌ على عرش الهدوء. خصوصاً قهوة شيرين ذات الرائحة المميزة المنبعثة بقوّة من الكوب مع تصاعد بخارها بدلال وغنج.

- دكتور، أنت تقرأ كثيراً!.

- نعم شيرين، أعتبر القراءة أرخص أنواع المخدرات.

- أليست لكسب المعرفة!؟

- لا شيء مهم فيها، إلا القليل، فالحياة هي من تعلمنا الدروس.

- دكتور، ما الفرق بين المخدرات والكتب؟

- كل شيء متوفر يفقد إثارته، الكتب متوفرة، أما المخدرات فممنوعة؛ لذا الندرة والتحريم ركنان أساسيان في عامل الإثارة.

- ولكنك تتعاطى الكثير من المخدرات، القراءة، القهوة، التجاهل...

شعر أنها تحاول دون قصد كسر الحاجز الرسمي الزجاجي؛ لذا نظر إليها بارتياب، لكنها أبدت حساسيتها من الكلمة الأخيرة (التجاهل)، وحاولت أن تضرب ضربتها، لذا خرجت وهي تقول: سلاماً للذين يشربون القهوة وحيدين، هادئين، شاردين وفي قلوبهم، ألف حكاية، وإن قرأوا حكايتهم يوماً لما عرفوها، لكنهم يقرأون لغيرهم كي يعرفوا الجانب الآخر من الحياة.

- شيرين هل أنهيت المبحث الأول؟

- نعم دكتور.

- كنت لتعرضت للعقاب لو لم تفعلي.

- دكتور المجتهدون لا ينجزون إلتزاماتهم تحت ضغط التهديد.

ثم سرح وان بعيداً، بعد أن إرتشف رشفة أخذته أفكاره الصاخبة إلى رامان، ولم يفهم، لماذا رامان بالذات... ثم استفاق، فنادى شيرين لأنه مازال يسمع ثرثرتها. إلا أنها لم تسمعه؛ لأنها غادرت وهي تثرثر، وآخر ما سمعه، كم كانت متهورة؟، وكأنها خلقت من العجرفة لا من التراب!.

– من يضمن الحصول على تلك الدرجة من المثالية، فهنيئاً له التهور.

وارتشف قهوته، وأغلق كتابه ونظر إلى جموع الناس في الحديقة من خلال نافذة مكتبه، منصتاً لأغنية بصوت المغني الخليجي عبدالمجيد عبدالله: أحبك ليه أنا مادري ليه أهواك أنا مادري

ثم قال إنتهى اللقاء، فلماذا لا ينتهي الشعور...

وكأنه يسمع هدى وهي تكلم نفسها: وإنك بقلبي ومهجتي وفكري، رُغم اللاشئ الذي بينك وبيني، رُغماً عنك وعن الزمن وعني، لأنني كنزٌ لا يغني عني. فقال: لأنهم يحسبون أنفسهم كنوزاً، فقمت بدفنهم في أعماقي المظلمة. لكنهم يريدون التقافز بين مسارات القدر فينجوا بعضهم من الدهس دون غيرهم.

بعد محاضرة مرهقة خرج من القاعة، فاشتهى القهوة الغنية بالكوكائين، التي تساعده على النشاط والحيوية المطلوبة، فبدأ بإعدادها باحتراف وإتقان وبطقوس أنيقة جداً، ثم إرتشافها بهدوء على أنغام موسيقى هادئة، تحت أشعة الشمس التى تسبح فى كبد السماء، فتلامس وجهه فيدفئه ليستمتع بإستراحته، إلا أن ليلى وليليان أفسدتا عليه تلك اللحظات الجميلة.

– دكتور، هل عندك وقت لسؤال مهم؟... ثم جاءت إبنة عمها ليليان، وسلمت هي أيضاً بإستحياء.

– نعم ليلى تفضلي.

– أنا وإبنة عمي ليليان، صديقتان منذ الصغر بحكم القرابة والعمر، والتشابه الروحي وتناغمه، كذلك زميلتان مقربتان في الدراسة، وإلى الآن لم نفترق، فنحن وكما تعلم طالبتان في المرحلة ...

– أهي قصة الحياة أم سؤال يا ليلى؟.

– كي أقرب الصورة؛ لأن سؤالي متعلق بي وبإبنة عمي، التي لا أطيق الإبتعاد عنها، فبعد أن نفترق لمدة عشر دقائق وهي المسافة بين الجامعة والمنزل يتوجب علينا التواصل. وهي دائماً تقول لي: كيف لي بإقناعك أنني لا أريد منك شيئاً سوى مقعد خشبي بجانبي، وطريقٍ طويلٍ نمشي فيه جنباً إلى جنب، نعيد أحاديثنا ألف مرة وكأنها المرة الأولى، ووردة تقطفينها لي، قبل أن أحظى بقبلة الوداع.

إلا أن شخصاً تقدم لخطبتي، وأنا محتارة، أأرفضه لأحتفظ بصديقتي، أم أوافق على الزواج منه، وهو شاب وسيم، ذو أخلاق رفيعة، وأدب جم، يحمل شهادة جامعية، وله مشروعه التجاري الخاص، ولكنني سأفارق أعز صديقاتي، ورفيقة روحي، واغرورقت عيناهما بالدموع التي تدحرجت على وجنتيهما، وكإنها المرة الأولى التي تسقط تلك القطرات الحارة كاللآلئ، فمسحت كل منهما دموع الأخرى بطرف الكم، وحينئذ تذكر وان أبيات شعر حر يعبر جزئياً عن الحالة الماثلة أمامه:

قلوبنا مدينةٌ نلقي فيها أناساً

سنحتفظ بهم في أعماقنا

ولن يتمكن غبار الوقت من إخفاء ملامحهم

وسنظل نصافحهم بِشوق، ونحتويهم بِحنين

جميلٌ أن نحبهم إلى الأبد

والأجمل أن يبادلوننا هذا الحُبّ، وهذا الشعور.

- إن كان حبكما صادقاً فلن تتمكن الظروف والأحوال من التفريق بينكما، وستنشغل كل منكما بعائلتها وزوجها، وأطفالها وعملها، ولكن سيبقى حبكما لبعضكما حاضراً رغم المسافات، رغم مشاغل البيت والعمل، رغم وجود أشخاص آخرين رائعين. فالحب الصادق لايخضع لقانون المسافات، ولا يأخذ أحد مكان المحبوب في قلب المحب. ولكن ليلى لا تتركي ليليان، وأبحثي لها عن خطيب لنبارك لكما سوياً.

- ليليان سأظل أحبك حتى يعلن الإبليس إيمانه، فأنت أشبه بالقمر.

- أحقاً أشبهك... وقد صبغ الحياء وجهها، وتوردت وجنتاها، وإضطربت وزادها دلالاً.

- سترتاحان من بعضكما بعضاً.

- راحة بالي هي أختي ليليان، فهي لا تزعج حتى نسيم الصباح إن مرّ بمحاذاتها... إزداد خفقان قلبها وتنفست بعمق، وتحولت نظراتها إلى ليلى التي جمعت بين الدلال والمسؤولية.

- في عتمتي، أنت ضوئي الوحيد.

إرتشف قهوته باردة على غير إعتيادٍ، وذهب إلى قاعة المحاضرة مودعاً ليلى وإبنة عمها ليليان، ماسكتينِ بيدي بعضهما بعضاً.

بدأ محاضرته بعبارة تحفيزية: لا تفوتوا الفرص أبداً إنها كثيرة، ولكن الفرصة التي فاتتك لن تتكرر بشكلها السابق مرة أخرى. وأخرج ورقة نقدية من جيبه بقيمة (20) دولاراً وقال من يريد هذه؟، فرفع البعض أيديهم، دون أن يتحركوا، فأرجعها إلى جيبه، وقال لن يأخذها أحدٌ؛ لأن أخذ الفرص لا تكون بالتمني، بل بالعمل، وهذا العمل يجب أن يكون مجدياً يساوي في مقداره وقوته قيمة الفرصة ليحصل عليها.

فطلب البعض إعادة التجربة، لكنه رفض وقال: إن الفرص لن تتكرر، وإن تكررت لن تكون تلك الفرصة بعينها، بل تختلف عنها. وأخرج ورقة نقدية بقيمة (دولار واحد)، أترون، فالفرص لا تتشابه. ثم أعيد التجربة بشكل آخر، في هذه المرة عندما أقول من يريدها لا تأتوا لتأخذوها، حتى أنهي كلامي، فوافقوا، فأخرج عملة ورقية من فئة العشرين دولاراً، وقال من يريد: فرفع أغلب الطلبة أيديهم، ثم كمشها بقبضته، وقال من يريدها: فرفع الكثير منهم أيديهم، ثم وضعها تحت قدمه اليسرى، وقال: من يريدها، فرفع بعضهم أيديهم، ثم أخذها وقال: مهما فعلت بها، فستظل محتفظة بقيمتها. كذلك الإنسان مهمها فعل به الآخرون، والظروف، والأحوال، فسيبقى محتفظاً بقيمته، حتى وإن تغير شكله، ونفسيته، ومبادئه؛ لأن له قيمة. وقد استحضر عبارات تحفيزية من ذاكرته: فلم نخلق في هذه الحياة من دون هدف، ولسنا رقماً في معادلة سخيفة، أو ظلاً لشخص آخر. لنفكر فيما يلي: لا شيء يمكن أن يكون هو ذاته لو أنك لم توجد في هذه اللحظة. فكل مكان ذهبت إليه، وكل

شخص تحدثت إليه، سيكون مختلفاً في حال عدم وجودك، لأننا مترابطون، وكلنا نتأثر بمن هم حولنا وبقراراتهم؛ لأن لهم قيمة في حياتنا، كذلك لنا قيمة في حياتهم، فهي معادلة الحياة، ونحن كالارقام لنا قيم رقمية، نحدث فرقاً في المعادلة حال وجودنا.

وقد تلتقي بمن يعطيك قيمتك أو أكثر فيحترمك ويقدرك، ويهتم بك، ولكن قد تصادف من لا يعرف قيمتك، فيستهزء بك، ويحط من قيمتك، ولكن المشكلة ليست هنا بل المشكلة فينا نحن، فنحن يجب أن نعرف قيمتنا ونحترم أنفسنا ونقدرها. فنحن كبصمات الأصابع، لا تشبه واحدة الأخرى، أنت مختلف، قدراتك، أحلامك، آراؤك، قناعاتك، أسلوب حياتك، لا تحاول أن تشبه أحداً ولا تحاول جعل الآخرين يشبهونك، حينئذ ستعرف كم أنت مختلف، وستعرف كم أنت متميّز، ويجب أن تختلفوا فلم تعد الحياة بحاجة إلى مزيد من النسخ.

وجاءته سيل من الأسئلة حول كيف؟، لماذا؟، متى؟، من؟، أين؟... الخ، فالموضوع معقد ومهم جداً، إلى جانب حساسيته، وإتصاله المباشر بنا جميعاً. فأجاب عنها كلها. وفي نهاية المحاضرة، لّخص الموضوع. لكلٍ منكم قيمة إحتفظوا بها. ولا تنسوا هذه العبارة: «السّماءُ إنعكاسٌ للأرض، كلٌ مِنّا نجمٌ بطريقتِه الخاصّة».

وبينما يخرج من المحاضرة نادته طالبة، فتوقف وهو بالقرب من باب مكتبه.

- لارين، تفضلي.

وقد أحمرت خدودها، وشع وميض من عينيها العسليتين اللماعتين، وذهب تفكيرها بعيداً، وبشق الأنفس حتى تمكنت من إسترجاع بنات أفكارها. لأنها كانت فتاة خجولة، رغم أنها كانت طالبة ذكية، إلا أن عاطفتها قد طغت على باقي صفاتها.

- أستاذ لا تعرف كم أثّرت عليّ؟ فتغيّرت مفاهيم كثيرة في حياتي، وتحولت إلى شخص آخر؛ لذا أريد أن أشكرك.

- إن لم أغير سلوك طلبتي، فما الفائدة من محاضراتي؟.

وكان للارين طلب آخر، وهو الإستئذان بحضور صديقتها أنوار إحدى محاضراته، وكانت أنوار طالبة في كلية الهندسة، وتعمل في الوقت ذاته متطوعة في إحدى المنظمات، فوجدت الموافقة دون تردد كما توقعت.

- أحسدك على ما تملك من روح مرحة، ومتفائلة، الحسد بمعنى آخر، أي أن أكون مثلك.

وكان يقول في قرارة نفسه، ولو علمت ما فيَّ لهربت خوفاً، ثم ردد بصوت منخفض: سنظل نحترف صنع الأمل مهما أصابنا من ألم. ودخل المكتب وشغَّل إنشودة عن الأمل والتفاؤل في هاتفه.

إذا كان الأمس ضاع، فبين أيدينا اليوم

وإذا كان اليوم سوف يجمع أوراقه ويرحل، فلدينا الغد ...

لن نحزن على الأمس فهو لن يعود، ولن نأسف على اليوم فهو راحل

فأضاف: ستتألم، فتَعتاد، فلن تشعر به، لأنك أدمنت عليه، إلاّ إذا تم إعادة شريط ذكرياتك وعايشتها. حينئذ ستشعر بألم أشد؛ فعلى رفوف حياتنا قد تركنا لحظات محملة بالصور، الأصوات، الملامح، الأشخاص، والمواقف، كأَشياء مُبعثرة، تعبِّر عن تفاصيل لانرغب بنسيانها، إنها تلك الذكريات المؤلمة، التي تؤلمنا كل لحظةٍ وكل حين.

ثم بحث عن رقم هاتف صديقته ملاك، واتصل بها، بعد فترة من التردد المرعب، والصمت المخيف، والاستعداد النفسي، وبعد أن فكر بها، ووضع نفسه مكانها. فكم جميل أن تتحدث إلى شخص بلغة الصمت، ويكون الصمت ذو مغزى

- نعم وان تفضل.

لحظات صمت، واختلطت عليها الأمور، فهو لم يتصل بها منذ فترة طويلة، وبصوته المتذبذب ونبرته الهادئة والحازمة، يطلب لقاءها، فوافقت في الحال، ولكن في وقت لاحق، لأنها متعبة جداً، وقد وصلت من عملها للتو.

شعر بالإعياء، ودخل نوبة من الحزن الشديد مكوماً على الأرض، وارتسمت على وجهه علامات ألم وحسرة، لكنه تدارك الأمر سريعاً، وحاول أن يشغل نفسه، حتى تنتهي الإستراحة، فقرأ مجموعة من المنشورات على مواقع التواصل الإجتماعي ومن جملتها:

- مواقف البعض تجبرنا على الرحيل حتى دون وداع، وإن كانوا في يوم ما يعنون لنا الدنيا وما فيها.

فقال: ولكن البعض إستثناء...

- كانوا معي على رصيف الإنتظار يسردون لي قصص أحبائهم الغائبين، فأمسح دموعهم وبعد عودة أحبائهم تعانقوا أمامي ثم رحلوا حتى دون أن يلتفتوا لي.

فقال: هذا حال الجميع دون إستثناء.

-يزداد غباؤنا بنسبة عالية عندما نتحدث مع شخص يعجبنا

فقال: لهذا نتصرف بجنون، ونقع في المشاكل.

- أبداً لا تعامل أحداً كنجم؛ لأنه سيعاملك كمعجب.

فقال: إنه الغرور.

- إذا لم أعاتبك، وأغضب عليك، فأنت لاشيء بالنسبة لِي.

فقال: قد .

- الوجع دائماً أنيق، لا يختار سوي القلوب الطيبة.

فقال: بل جميع القلوب، إلا أن بعضها لا تبالي، فعدم الإحساس إحساس رائع.

- لا تحزن عندما يهجرك البعض، فربما دعوةَ ذاتَ ليلةٍ دعوةً وتحققت، مفادها (وأصرف عني شر ما قضيت).

فقال: نعم حقاً.

- بالأفعال سنعرف ماذا نعني لهم، حتى ولو كثر الحديث.

فقال: وهل يتساوى الفعل والقول؟

- بعض العادات السيئة يجب إزالتها، كإنتظار محادثة أحدهم وهو في الطرف الآخر من العالم لا يفكر بك.

وهنا توقف برهة، وقال: ولكن قد يكون له عذراً، وقد يفكر ونحن لا نعلم!.

رن جرس هاتفه، ظن أنها ملاك، لكنه كان بوتان، موظفٌ لديه في المركز، يخبره بإحالة ملف مستعصي جداً من قبل منظمة دولية لحالة نفسية مستعجلة. فأخبره أن يرتب ملفه، وسيتم دراسته مساء اليوم.

رن هاتفها، نظرت إليه، فشاهدت رسالة من وان يطلب منها موعداً للقاء ضروري ومستعجل، لإستشارتها في حالتين لديهما عقد نفسية، ومشاكل إجتماعية.

برهة من الزمن، أخذته الظنون إلى أبعد نقطة من التفكير، هل قرأت الرسالة؟، يبدو أنها تقرأها بتمعن، أو انها قد أهملتها وضجرت مني ؟. إلى أن سمع الرد.

- حسناً، ولكن ليس الآن؛ لأنني مشغولة جداً؛ فأنا متعبة جداً. ولكنني أطلعت على الحالتين، إنها من الحالات شبه المستعصية، ولكن حسب علمي لايستصعب عليك إيجاد حلول لهما.

فيبدو أنها قد قرأت الرسالة بتعمق وتمعن، وتأملت الحالتين بشكل جيد، دون أن تتأثر بها، لإعتيادها على ذلك، من خلال عملها الإنساني مع منظمات دولية فهي تعمل على معالجة الحالات النفسية المستعصية.

وقع وان في شراك معقد من التفكير، ولكنه أخيراً إبتسم إبتسامة شكرٍ للّه... وهو ينظر إلى خاتمه، وبدأ يحركه كما كان

يفعل كثيراً في محاضراته، لماذا لا أحد يعرف، وما أن إنتهى حتى وجد نازك في الباب تطرقه برقة وتدخل بهدوء.

– نازك التي أتعبت السرطان وكاد أن يمل منها ويرحل عنها.

كلمات تحفيزية كفيلة بإنصهار السرطان وإستئصاله من جذوره، جعلت نازك تبتسم ودموع الفرح تنهمر من عينيها، جلست بدلال.

– دكتور لدي خبر سار لك، أظهرت الفحوصات أن الورم قد تقلص، وسيتم إجراء عملية جراحية لإستئصاله.

– ياللخسارة.

– لماذا دكتور... بدت علامات الذهول والإستغراب على وجهها المشرق.

– خسرت الضمان الذي حصلت عليه من الأطباء، والآن أنت بلا ضمان.

– في النهاية كلنا راحلون.

– الخلود، والموت، والرحيل، والفناء وغيرها مجرد مصطلحات مستهلكة ستندثر يوماً ما.

– كيف؟

– فالخلود ليس امتداداً للحياة... بل التعمق في الحياة، التعمق في لحظة محددة من حياتنا.

– أعتذر دكتور، يبدو أنني لم أفهم شيئاً.

– إنها مسألة فلسفية معقدة... على كل مبارك لك، وأخيراً إنتصرت عليه.

- بفضلكم جميعاً.

- وبهمتك.

****

في مساء ذلك اليوم، بينما كانت ملاك منشغلة جداً بإدخال بعض البيانات في إستمارات خاصة رن هاتفها، نظرت إليه، إنه وان مرة أخرى.

- نعم وان تفضل.

- ملاك، أحتاج للحديث معك وأخذ إستشارتك، أرجوك الأمر ضروري جداً.

- حسناً، موافقة، اليوم الساعة الرابعة والربع، رغم أنني متعبة جداً.

بعد ساعة ونصف، إتصلت به، واعتذرت لعدم قدرتها على المجئ؛ فهي تعاني من آلام في الظهر. فقبل وان الإعتذار، وترقرقت الدموع في عينيه؛ لأنه كان يصر عليها وهي تحت ضغط كبير جرّاء عملها المتعب، وهي في الأصل تعاني من أمراض عديدة، إضافة إلى وضعها النفسي غير المريح، والأمر الثاني هو أن حالته مستعجلة ولا تتحمل التأجيل أكثر. فتقوقع في ثنايا نفسيته المتعبة جرّاء العمل والمرض الذي فتك به، وظل يقاومه لسنين طويلة.

رن هاتفه، فتوقع أنه اتصال من ملاك، إلا أنه سمع صوت شاكر، يطلب موعداً مستعجلاً للقاء مطول. فكّر برهة من الزمن، وقارن بين شعوره لتأخر موعده مع ملاك، وموقفه مع شاكر، فقال: سآتي حالاً، ولكن أين نلتقي؟

– في مكان هادئ نشرب الشاي على مهل.

– يبدو أنك لا تدري أن الإرشادات الحكومية توصي بالإبتعاد قدر الإمكان عن الأماكن العامة، والتجمع في المقاهي والكافيهات كإجراء إحترازي، منعاً لتفشي هذا الوباء؛ لذا إن أردت سنلتقي في الحديقة العامة.

– لدي الكثير من التساؤلات، قالها شاكر، وعدّل جلسته على المقعد الحديدي غير المريح، في الساحة العامة، متأملاً طيور الحمام التي تطير في باحتها، وتتجمع حول النافورة التي تتوسط الساحة لتقتات على فتات الخبز التي تتركها مرتادوا الساحة بين حين وآخر. ثم أكمل...

– أعرف أن رأسك مليء بالأسئلة، سأجيب عليها بإختصار، وأفضل أن نؤجل بعضها ليوم آخر. رجعت علاقتي بزوجتي إلى سابق عهدها بل وأجمل، وتمكنت من قطع علاقتي بسوزان، كانت ماكرة جداً غير صادقة في حبها، وتركتها في حال سبيلها تختار طريقها في الحياة، ومن ثم علمت أنها تزوجت شخصاً آخر، ويعيشان الآن في ألمانيا، لكنها غير سعيدة معه.

إلا أنه من نبرة صوته، ومتابعته لأخبارها عرف وان أن هناك خيطاً موصولاً بينه وبين سوزان، لم يرد شاكر قطعه، بل يبدو أنه كلِفَ بها، فتتأثر بها علاقته بزوجته سلباً.

عدّل وان أيضاً جلسته بالتزامن مع تعديل شاكر لجلسته، وهو دليل على التناغم الجسدي المنبعث من التوافق في الأفكار والمشاعر. ورغم أن الكم الهائل من أسئلة وان المفترضة أو

المحتملة لم يجيب عليها، لكنه أقنع نفسه، بأن عليه الإكتفاء بذلك القدر، وما عداها تعتبر من خصوصيات سوزان وشاكر وزوجته، ليس له الحق بالتدخل فيها؛ لذا ظل صامتاً. مكتفياً بالقول: عندما نتخذ قراراً بالإبتعاد عن شخصٍ ما، فيجب أن نتخذ قراراً موازياً بأن لا نراقبه من بعيد أو نتتبع أخباره، هل قابلتها بعد أن صارحتها؟

– لا فقط عن طريق الفيس... وأحياناً أكتب خواطر هي بطلتها.

– وهل تراها؟، أو تعلق عليها؟

– لا أعتقد ذلك، ولكن حزنٌ مكتوب خير من حزنٍ مكبوت.

– شاكر، صديقي العزيز، لا تفرط بأحاسيسك في عالم إفتراضي يتحكم به بطارية مستهلكة وشاشة جامدة ولوحة مفاتيح وسخة.

فهمه شاكر، وليغلق الموضوع بدأ بتساؤلاته التي طرحها بالجملة، هل كورونا فايروس من غضب الطبيعة أم عقاب إلهي، أم هو من صنع البشر في مختبراته كجزء من حرب جرثومية؟، هل هو من صنع الولايات المتحدة الأمريكية؟، أم الصين صنعته لغاية في نفسها؟، أم دولة أخرى؟

– إلى الآن جميع الإحتمالات واردة، وليس بمقدور أي من النظريات الدينية أو السياسية أو الإقتصادية ولا حتى الإجتماعية أن تجد جواباً مقنعاً، وكل شخص أو جهة أو دولة تتبنى نظرية، أو فروضاً وفق المصالح والخلفيات الثقافية. فذهب البعض إلى أن الصين نفسها قد طورت الفايروس في مختبراتها القريبة من سوق

بيع لحوم الحيوانات البرية الذي إنتشر فيه لأول مرة بووهان، وهناك دراسات علمية تتبنى هذه الفرضية.

– أمن المعقول أن تقوم الصين بذلك؟ ولماذا بدأت بشعبها، أخرج من سيطرتها؟ أم قامت بذلك عمداً؟.

– النتائج الأولية تثبت صحة هذه الفرضية، فقد إشترت الصين جميع أو أغلب أصول وأسهم الشركات الأمريكية والأوروبية العملاقة على أراضيها، وبأسعار متدنية جداً، بعد أن فرّ مالكوها من الصين الموبوءة. وإذا قمنا بمقارنة مجريات الأحداث مع مجريات أحداث رواية (الحب في زمن الكوليرا) سنجد تطابقاً عجيباً بين الحدثين. فقد أطلقت الصين إشاعة تفشي وباءٍ خطيرٍ، كما أشاع العاشق السبعيني فلورنتينو أريزا كذبة بأن سفينته موبوءة بالكوليرا، كي يحظى بفرصة الإختلاء بحبيبته فيرمينا دازا. كذلك فعلت الصين، فوضعت يدها على أغلب كبريات الشركات العالمية التي إتخذت أراضيها مقراً لها، وبهذه الخطوة سيكون لها القرار الحاسم في الإقتصاد العالمي بل وتقرير مصير العالم أجمع دون منافس. والنتيجة الثانية التي ستظهر آثارها المترتبة بعد أعوام من الآن، وهو أن الشعب والمجتمع الصيني سيتجدد بتخلصه من فئة الطاعنين في السن والمرضى والقاعدين عن العمل، الذين يعتبرهم الإقتصاد الصيني عالة على الدولة (وفق أصحاب تلك النظرية)، فهم فئة غير منتجة من ناحية، ومستهلكة طفيلية من ناحية أخرى. كذلك فهذا الفايروس لا يصيب الأطفال ولا يتسبب بموت الشباب إلا نادراً؛ لذا فبعد أعوام قليلة سيكون الشعب الصيني من الشعوب

الشابة، شعب يمكن الرهان عليه كي تكون الصين القوة الإقتصادية العالمية العظمى، والوحيدة في العالم أي القطب الوحيد، ولكن ما يفند ذلك، هو أن الماثلين للشفاء، سيظلون متأثرين بالمرض؛ لأن جزءاً من رئة المريض ستتضرر والقلب أيضاً، رغم شفائه الظاهري. وقد تكون هناك أعراض جانبية أخرى لم تكتشف بعد، ولها آثارها السلبية.

والسبب الآخر والأقل أهمية، فهو رغبة حكومة الصين في إيجاد طريقة كي تثني فئات من شعبها عن بعض التصرفات التي باتت وصمة عار لها، وهي أكل كل شيء حتى الأطفال الخدج. ومن يقرأ رواية الطاعون، أو الحب في زمن الكوليرا، ستزداد شكوكه جرّاء ما يجري في الصين الآن. ومتأكد أن الصين ستقوم ببعض الإجراءات لمنع أكل لحوم الكلاب والأفاعي والخفافيش وحيوانات أخرى.

وسترون كيف ستسيطر الصين على العالم بإقتصادها، وثقافتها، حيث أن طريقة وأسلوب إدارتها للأزمة بات محل إعجاب الجميع، خصوصاً إستفادتها من التكنولوجيا عن طريق الـ Big Data.

وستهبط أسعار النفط إلى ما دون التسعة عشر دولاراً، ثم ترتفع قليلاً لفترة من الزمن، وسيكون الصين المستفيد الأكبر لإنشغال دول العالم، وخصوصاً الأمريكية والأوربية بإجراءات مواجهة الفايروس الذي سينتشر سريعاً فيها، وستشل الحياة الإقتصادية والإجتماعية إلى حد كبير، في الوقت الذي تتعافى الصين بشكل مذهل.

وهناك من يذهب إلى أن مصدر الفايروس ومركز تفشيه الأساسي، ليست الصين ومدينة ووهان بالتحديد، بل هي إيطاليا التي تصارع الموت بصمت تام وتحت جنح الظلام دون أن يسلط عليها الإعلام، كي لا يتأثر الإقتصاد ومصالح الشركات الكبرى.

وهناك من يتبنى نظرية التوازن الطبيعي، وأن الفايروس ما هو إلا نتيجة إختلال التوازن بينها وبين الإنسان، وأصحاب هذه النظرية يروجون فكرة أن الكرة الأرضية ستتجدد، وستصبح أكثر نظافة وجمالاً من ذي قبل، وكما ترى الآن قد ترسخت عادات النظافة الجسدية والمكانية لدى الجميع، وهناك أخبار عن تعافي ثقب الأوزون.

أما باقي النظريات فهي جلية للجميع، كالنظرية الدينية لدى بعض قصارى التفكير، بأنه عقاب إلهي لقيام الصين بإبادة مسلمي الإيغور. لنفترض جدلاً أن ذلك الفرض صحيح؟، فلماذا لم ينزل العقاب الإلهي على بورما عند قيامها بإبادة مسلمي الروهينكا؟، وعلى الحكومات العراقية المتعاقبة عندما كانت تبيد شعبها بشكل ممنهج، وعندما أبادت الكورد بأبشع الطرق والوسائل؟، ولماذا لم تصب دولاً أخرى وهي تبيد فئات معينة من مجتمعاتها وشعوبها؟ ومازالت؟ ولماذا لم ينزل العقاب الإلهي المزعوم عندما كان تنظيم داعش يفتك بالإيزيديين، ويبيدهم عن بكرة أبيهم، ويدفن رجالهم أحياءاً، ويغتصب بناتهم وتباع في أسواق النخاسة. وهنّ ينتحرن دفاعاً عن شرفهن.

وهناك من يقول أن كورونا ما هو إلا جند من جنود الله، ولكن ماذا سيقولون لأنفسهم؟، لو إستطاع الإنسان صنع دواء

للقضاء على الفايروس، أليس مناقضاً للآية الكريمة (وان جندنا لهم الغالبون)؟

- سنة مشؤومة من رأسها.

- المشكلة في رؤوسنا وليس في رأس السنة.

رن هاتفه، فنظر إليه، إنها ملاك، سقط الهاتف؛ فلم يستطع الإمساك به لشدة الفرح، ولكنه فوجئ بإجابة خيبت أمله بعض الشيء وبعثت البهجة في نفسه قليلاً.

- لقد قرأت رسالتك، وتأملت في الحالتين. فلدي زميل يعمل أستاذاً في الجامعة مختص في علم النفس، وهو مخلص جداً في عمله، يراجعه كثير من هذه الحالات ويستشيره أشهر الأطباء والدكاترة النفسيين. وقد تحدثت معه وهو مستعد لتقديم يد العون، وإذا أردت سأرتب لك موعداً معه، أو أعطيك رقمه فتتصل به، وتحددا موعداً للقاء، وأرجو لك التوفيق.

وبعد أن أغلقت سماعة الهاتف، شعر وكأن حجراً بحجم الأرض قد وضِعَ على صدره، وإنهمرت دموعه الحارة وبللت خدوده التي أذابتها المرض، وحينئذ تذكر أبياتٌ شعرية لقصيدة (لا تشكو للناس جرحاً أنت صاحبه) للشاعر الكبير (كريم العراقي) ورددها بصوت أقرب إلى النحيب وحالة لا يحسد عليه، جمع بين البكاء، والحرقة والغربة، والشعور بالوحدة، والإحساس بالندم.

فبدأ يضرب فخذه بقبضة يده، مردداً:

لَا تَشْكُ للنَّاس جُرْحاً أَنْتَ صَاحبُهُ لا يُؤْلِمُ الجُرْحُ إلَّا مَنْ به ألَمُ

شَكْوَاكَ للنَّاس يا إبنَ النَّاس مَنْقَصَةٌ وَمَنْ منَ النَّاس صَاحِ مَا به سَقَمُ

وازدادت قوة الضرب بعد أن وصل إلى البيت:

لَا اليَأسُ ثَوبي وَلَا الأحزانُ تَكسرُني جُرحي عَنيدٌ بلَسع النّار يَلتَئمُ

وكأن ما حدث، وعدم حصوله على موعد رغم إلحاحه الشديد، إشارة إلى وجوب عدوله عن إخبار ملاك بما يشكوه من المرض، ومواصلة محاربته لهذا المرض الخبيث الذي أصابه، فقد أوشك على الإنتصار عليه، إذ لم ييأس أبداً ولم يحزن بسبب المرض، وما كان يعانيه من قلة المال لاستكمال علاجه، بل كان يتألم خشية عدم تقبل وضعه الصحي بعدما يصارح أقاربه وأصدقاءه؛ لذا كان عليه أن يتقبل نفسه، وأن يخبئ سره في أعماقه المظلمة، فالناس يصبحون نافورة كبيرة عندما تختل المصالح، وآخرون غربال لا تخفى بهم الشمس، وثلة تهرب منك وكأنك تحمل مرضاً ستفتك بهم؛ لذا عليك بكظم الغيض، والتحلي بالإيمان، وتوصل لتلك القناعة عندما وصل إلي البيت:

إشرَب دُمُوعَكَ وَاجرَع مُرّهَا عَسَلاً يَغزُو الشُّمُوعَ حَريقٌ وَهيَ تَبتَسمُ

وَالجم هُمُومَكَ وَاسرج ظَهرَهَا فَرَساً وَانهَض كَسَيفٍ إذَا الأنصَالُ تَلتَحمُ

كان شاكر شاهداً على ما يحدث لصديقه، وما يمر به ما حالة نفسية مزرية، والتقلبات المزاجية المخيفة.

- أفترض أن حالتك أصعب.

- من ناحية أهون؛ لأنها نفسية بيني وبين نفسي، ومن ناحية أخرى أشد؛ لأنك أنت بنفسك كنت سبب مشكلتك، أما

حالتي فمختلفة، ولكنها ستهون، فقط أحتاج إلى إستراحة نفسية وقضاء بعض الوقت وحيداً، قبل أن تقل مناعتي فتصيبني الكورونا، وأكون مجرد رقمٍ في معادلة محلية وعالمية، أو قصة منسية في الحجر الصحي.

عندما وصل وان إلى بيته كان عليه وكما في السابق، أن يستمد قوته من مرضه لا من ضعفه، ويجب أن يكون المرض مصدر قوته لا هوانها، فمسح دموعه، وأمسك بكتاب (قوة عقلك الباطن)، بعد أن عمل لنفسه كوب قهوة البطم، وأكمل في تلك الليلة عشر صفحات.

وبعد أن توقف قليلاً، تذكر في الحال نصاً مقتبساً من منشور، لا يتذكره لمن: الزمن كفيل بمعالجة كل شيء إلا ذلك السر الصغير المختبئ في قلبك، الذي يجعلك تبتسم وتتألم في الآن ذاته، فلن يغيره شيء مهما كانت قيمته، كأنه شيئاً لا يمكن تعويضه. وفي كل استراحة يمنحها لنفسه، كان يفكر بملاك، ومدى إهتمامها بالحالتين وكيف قرأت ما كتبه بدقة، وكأنها هي التي ستعالجه، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، وبعد المشاكل التي حدثت بينه وبين ملاك، جرّاء سوء فهم لا يعرف سببه، ولا هي أيضاً، وبدأت علاقتهما تتعافى تدريجياً، دون أن تفقد من الاهتمام والإحترام، والصراحة شيئاً، بل نضجت أكثر.

فكّر ملياً، أعليه أن يخبرها بسره أم لا؟ أهو مجبر بإخبارها؟ هل ستساعده أم لا؟ هل هو محتاج لمساعدتها؟ أعليها أن تتحمل خبراً كهذا؟ كيف سيكون موقفها؟ هل ستحتفظ بالسر أم لا؟ ماذا

سيكون رأيها؟ إستشارتها؟ وبدأت الأفكار المتناقضة في رأسه تتنازع كالعادة تاركة فوضى عارمة، نتف من أفكار مبعثرة، كلمات متناثرة من جملٍ غير مفيدة، أشكال وألوان وصور لوجوه غامضة باهتة، ((الشمال الجنوبي، الكمامة المخضرة، الحب الميت، لن أعطس دماً، الغدر السامي، الخيانة المقدسة، السم الدافئ، الحكمة التافهة، قلب برأسين، العولمة الرحيمة، الرئيس المندوب، الزوجة الوفية، الصديقة المخلصة))، حقاً إنها فوضى عارمة، فهو يحتاج إلى موقف وقرار حازم حاسم. فحاول إعادة ترتيبها ((الشمال الدافئ، الكمامة الرحيمة، الحكمة المقدسة، الحب السامي، الخيانة التافهة، القلب الرحيم، الشمال المخضر، الرئيس ذو الرأسين، السم الغادر، العطسة القاتلة، دم القلب، الزوجة الوفية، الصديقة المخلصة))، نعم يمكن تغيير مواقع جميع الكلمات لتشكيل عشرات الجمل المفيدة، وتركيب مئات الأشكال، ورسم عشرات الوجوه الباهتة جزئياً، دون أن يتم المساس بالعبارتين ((الزوجة الوفية، والصديقة المخلصة)) عبارتين، وجملتين، بل كتابين قائمين بذاتهما، معصومتان لا يمكن المساس بهما، غير قابلان للقسمة إلا على نفسهما، لا تنطبق عليهما قانون الرجوع، ولا قانون النسيان، ولا حتى قانون الجذب لنيوتن، فلو كان الأخير حياً، لأعاد النظر في قانونه.

رفع يديه ودعا الله مستغيثاً، وعقد مع نفسه جلسة استرخاء، مستخدماً تمارين قانون الجذب، ثم خلد للنوم دون أن يحلم، إذ كان يرى ملاك كثيراً في مناماته التي تتحقق الكثير منها، فقبل سوء

التفاهم معها رآها تتزوج، وكان يلحق بها وهي في فستانها الأبيض تهرب منه، قائلاً: لماذ تهربين مني؟ لا أريد شيئاً سوى أن أبارك لك؟!. وفعلاً في كل مرة يصادفها تتوارى عن الأنظار وتختفي وتحجب نفسها في مكان ما، دون أن تأتي حتى للسلام عليه.

وفي تلك الأثناء، تذكر نصيحة لصديقته (رباب العزيفي): عندما تحتار حول قيامك بأمر ما من عدمه، أنظر بأعماق روحك، ستجد قبضاً أو بسطاً وإرتياحاً، هنا يحصل أمر خطير جداً، ربما تسمع صوتاً بداخلك يهمس لك «لا تلتفت لما تشعر به الآن، وأكمل العمل، بعد ذلك يتبين لك» لا تنصت إليه يا صديقي لأن للّه «حضور»، لاوجود للزمن لديه، لذا ما تشعر به الآن دليل وإشارة على ما تشعر به الآن فقط، فكن على ما تظنه به. سر على ما يدلك إليه. ربما بلحظة أخرى بعد فترة، ستشعر حيال هذا الأمر بالضبط بنفور أو قبول، هل يعني أنك كنت مخطئاً بالأمس؟ الأمر ليس كذلك مطلقاً، بل يتعلق باللحظة. فاللّه في كل لحظة يأمرك بشيء. حتى وإن كان مناقضاً لما شعرت به روحك بالأمس، منافياً له كلياً. فقط كن «اللحظة»، فاللّه تعالى لا يفكر بالزمن بطريقة تفكيرنا، لا يفكر بهذا المشروع وذاك، هل هو ناجح على الدوام؟، فأنا ما هو عليه الآن.

وفي الصباح الباكر إستيقظ على صوت الهاتف، ففتح السماعة دون أن يتأكد من الذي على الطرف الآخر، صوت ناعم حزين، يطلب مساعدته في أمر ضروري، فتاة تطلب إستشارته، كيف تقنع إبنة عمها للعدول عن محاولات الإنتحار المتكررة، فقدم

الإستشارة الملائمة، وتابع الأمر لساعات إلى أن جاءته الأخبار السارة بأنها قد عدلت عن ذلك القرار المخيف، وقدم لها الإستشارة الاخيرة وهي أن تجد لنفسها عملاً تنشغل به، كي تبتعد عن الفراغ النفسي، ويبتعد عنها شبح التفكير المستمر بالفشل في الحياة وتدهور العلاقات، وأن المجتمع متضامن معها، وهي عنصر فعّال في المجتمع، وأن هناك من ينتظر مساعدتها.

وكنتيجة لقانون الكارما (ما تفعله للآخرين يعود بنتيجتها إليك سواء كان خيراً أم شراً، يعود إليك بنفس الدرجة أو النتيجة)، إذاً فحياتنا نتيجة حتمية لأفكارنا وأعمالنا، وعلى قدر النوايا نرزق. ففي المساء جاءه إتصال من ملاك بأنها رغم تعبها ستأتي في الساعة الرابعة والربع إلى المكان المحدد لتلتقي به. وكأن القدر لم يشأ أن يخيبه، ويرد يديه خاوياً. عجيب أمرك ايها القدر، أحياناً تبتسم لنا، وكثيراً ما تضعنا في زاوية مهمشة، وتطوي صفحات كتابنا دهراً من الزمن، وأحياناً تغير مساراتك في لحظة حاسمة، غريب أمرك أيها القدر لا يعرف كنهك ولا سرك، أحدٌ من البشر، فقط هنالك تجليات، ورسائل قد لا نفهمها، أو حتى لا نشعر بها.

ألقى نظرة إلى ساعته التي تشير عقاربها إلى الثانية عشرة ظهراً، خمس ساعات ونصف تفصله عن موعده مع ملاك، فبدا كل ثانية تمر وكأنها ساعة، حركة عقاربها بطيئة لا تتحرك إلا بشق الأنفس، فلم تمر عليه ساعات أبطأ من تلك؛ لذا فكر في زيارة رامان الذي وعده أن يلتقي به، ولم يفِ بوعده حتى الآن، فيقضي بعض الوقت معه حتى يحين موعده.

صعدا كتف الجبل المطل على المدينة، فلاحظا نشاط المدينة وصخبها، بسبب الإجراءات الحكومية للتهئ بغلق أبواب الجامعات ودور العبادة وقاعات المناسبات، كذلك تعليق دوام أغلب الدوائر الرسمية وغير الرسمية، عدا الصحة والداخلية، اللتين أصبحتا خط الدفاع الأول لمواجه الفايروس القاتل وخصوصاً الدوائر الصحية.

وجلسا على مقاعد خشبية غير مريحة، تحت مظلة كبيرة يقيهما حر الشمس وطلبا مشروباً غازياً بارداً، مع بعض المكسرات. فقال رامان: يقولون أن المكسرات تزيد من مناعة جسم الإنسان، وبالتالي زيادة فرص مقاومة الجسم للفايروس القاتل. وسمعت اليوم موقفاً مشرفاً من بعض مؤجري المنازل والمحلات التجارية بأنهم سيعفون المستأجرين من الإيجار لشهرين متتاليين؛ وذلك لأن الحكومة قد أصدرت تعليمات بغلق المحلات، كذلك لأن الحركة التجارية قد ضعفت، وهو موقف يحسب لهم، في مساهمتهم لمواجهة الأزمة.

أومأ رأسه دليلاً على الموافقة، دون أن يكترث لأمر الفايروس الذي أصبح حديث كل مجلس ومحادثة، فتحولا إلى بعض الأحاديث اليومية وتعرجا إلى السياسة، ثم بعض الأمور الإجتماعية دون أن يتجنبا كورونا فايروس؛ لأنه أصبح جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية للناس. فقال رامان: اليوم أتتني رسالة من فتاة إيطالية نشرتها على صفحتها تناشد الجميع بعدم الخروج من منازلهم، وإلا سيكون مصيرهم كالشعب الإيطالي:

«أيامنا صعبة، وأخطأنا كثيراً. حاليا نحن في الحجر الصحي، لا نخرج أبداً إلا للضرورة القصوى، الشرطة في كل مكان وتلقي القبض على أي شخص في الخارج.كل شيء مغلق!، الأعمال، مراكز التسوق، الشوارع. نشعر بنهاية العالم!! إيطاليا بلد الحياة، والحياة تتحول فيها بين لحظة وأخرى وكأنها بلاد تعيش حرباً. لم أكن أتصور أنني سأعيش مثل هذه اللحظة! الناس مرتبكة، وعاجزة، ولايفهمون كيف حدث هذا، ومتى سينتهي هذا الكابوس، أتوسل إليكم، كونوا حذرين، فحماية أحبائك، والديك، وأجدادك مسؤوليتك. المرض خطير، يموت هنا أعداداً لا تتخيلون، ليس لأن الطب غير جيد، بل لأنه لا توجد أمكنة للجميع، الأطباء يختارون من سيموت!، تعلموا من الأخطاء، فلا تخرج إلا للضرورة القصوى، إستمع إلى إرشادات وزارة الصحة!، كان يمكن منع هذا لو إستمع الناس إلى التعليمات في البداية.

– إنها ستكون كارثة إن لم نتقيد بالتعليمات بشكل صارم وسيصبح وضعنا أكثر سوءاً... وكان ينظر إلى ساعته ويتابع مرور الوقت، فتوقع رامان أن له موعداً مهماً جداً، فاستفسره وكان توقعه في محله؛ لذا شكره على خروجه معه، ومشاركته معلومات وأحاديث شيقة وحزينة في الوقت ذاته. فنزلا من الجبل وتوجه وان إلى حيث سيلتقي بـ ملاك.

فى الوقت المحدد شاهد سيارة ملاك الحمراء اللون توقفت بالقرب منه، فسلم عليها، وسأل عن أحوالها، فقاطعته ملاك

وطلبت منه الضغط على زر تشغيل التبريد الخاص به، نظراً لإرتفاع درجات الحرارة، وتعرقه الشديد ... وسألته في الحال.

- نعم وان أنصت إليك.

- تمهلي، لتنتظم أنفاسي، وأعرف من أين أبدأ. هل تتذكرين الحالتين اللتين كنت أريد مناقشتهما معك؟.

- نعم أتذكرهما، وقد ناقشتهما مع زميلي الأستاذ الجامعي، وقال أنه مستعد لتقديم المساعدة والإستشارة.

سكت برهة وقال بصوت مخنوق، ناظراً من خلال نافذة السيارة إلى الشارع المليء بالأطفال.

- هل تتذكرين الحالة الثانية، والشخص المصاب بالسرطان؟

- نعم أتذكره جيداً، سهل الله أمره.

- ولكنني متردد هل أُفاتحك بالموضوع، أم لا؟

- أنت حر، إن شئت لا تقل شيئاً، وليذهب كل منا حال سبيله، وكأنه لم يحدث شيء. غضّت جبينها وقطبت حاجبيها الرفيعين، كثعبانين أسودين مخيفين، وإحمرت عينيها الزرقاوين، مع إحمرار خدودها غضباً، ومسكت بعنف خصلة منسدلة من شعرها البني، وأعادت شعرها للخلف لتعيد ترتيبه من إنفعالها الشديد، فأصبح وجهها الممتلئ بالبراءة متوتراً ومخيفاً جداً.

كان يحادث نفسه: أحياناً أخشى الوحدة والعزلة؛ لأنها تضطرني إلى مجالسة نفسي ومواجهة الحقيقة، حينما أبذل جهداً للفرار منها بإدمان الأوهام ورسم الأحلام، وعندما لا

يكون هناك من يقف معي أو يلهيني عن نفسي، فأبقى أنا وحدي من دون حجة للهروب. حينئذ أكون مجبراً على مواجهة ذاك الذي فيَّ، فأكلم نفسي وتكلمني، وألومها وتلومني، وأنصت إليها وتنصت إليَّ، نتحاور، نتنازع، نتشاجر. أضطر لفتح جراح الماضي التي حاولت دائماً إخفائها حتى عن نفسي بنفسي، وكأن شيئاً لم يكن، لأن إخفائها عن الأبصار لا يعني زوالها. فأواجهها لأتجاوزها دون جدوى، فاستسلم للواقع وأقرر المواجهة. لذا قرر وان الإفصاح لها عما يجول في خاطره.

– لا لا، سأخبرك، ثم عاد للإشارة إلى تلك الحالة وقال بصوت مترنح... إنه، إنه، إنه... تردد قليلاً، ثم تشجع وقال: إنه أنا، أنا ولا أحد غيري.

بهتت، واندفعت قليلاً، ثم عدّلت جلستها ليصبح بين ناظريها، ويملؤها الحزن، مختلطاً بالإندهاش، ونوعٍ من العصبية، والقهر النفسي، والصدمة بالنيابة، حالة غريبة لم تشهدها من قبل.

– ماذا تقول؟!.... اصابتها دهشة شديدة، وتجمدت أطرافها، وتوقفت نبضات قلبها لفترة من الزمن، وتجمد تفكيرها ... وكان عليها إعادة ضبط نبضات قلبها كي تستعيد الحياة، ولا تبكي من ثرثرة المآسي التي توجهها منذ مدة ليست بقليلة.

– مثلما سمعتي، أنا مصاب بالسرطان منذ سنوات، وكتمت الموضوع عن الجميع، وكنت أنا وحدي العارف بالأمر لبضع سنوات، و .... قاطعته، تاركة مقود السيارة وحكت عنقها الحر، الذي يخلو من أية اكسسوارات.

- كيف حالك الآن؟ ... قالت بصوت مرعب ويشغل بالها الكثير من علامات الاستفهام والتعجب؟!.

- الحمد الله، أتماثل للشفاء ووضعي الآن جيد، لقد تجاوزت مرحلة الخطر، وأتابع العلاج.

- وأين تعالج؟ وهل هو مجدٍ؟ لماذا لم تذهب إلى الخارج؟

- هناك مستشفى متطور وجيد في المدينة الشرقية، إنه الأفضل في المنطقة، والعلاج مجدٍ جداً، بدليل أنني قد تماثلت للشفاء تقريباً ولم يبق إلا القليل، بضع جلسات علاجية أخرى وينتهي الأمر... قالها متحسساً حنجرته.

عدّلت جلستها وتوجهت بجسدها نحوه مسندة ظهرها إلى المقعد، وقالت معاتبة: ولماذا لم تخبرنا بذلك؟

فرمى بنظره بعيداً، وكأن في قلبه ألف كلمة، ألف عبارة، ألف جملة، بل ألف حسرة، ولكن لا يرغب في النطق بها، ويفضل أن تبقى حبيسة حتى تندثر ولا يبقى لها أي أثر إلا عليه، كندوب نفسية تدل دائماً على ضعف العلاقات الإجتماعية وتحولها إلى مصالح شخصية.

-لقد حاولت... وهذا كل ما يمكنني قوله، فبين ما يشعر به المرء وما يستطيع التطرق إليه مسافة هائلة.

إلا أنها أصرت على أن ينطق ببعض تلك الكلمات المدفونة في ثنايا نفسه المحطمة، وتنتزع ولو بعضاً منها عنوة، فيبدو أن حجم المعاناة لم يكن متصوراً، فنزل عند رغبتها قليلاً.

– بدايةً فكرت كثيراً، أأُخبرهم أم أكتم السر، وأتابع العلاج حتى أتماثل للشفاء أو أموت؟، فإن متُ أخذت سري معي. وإن شُفيتُ، فحينئذ لا داعي لأن يعرفهُ أحد؛ لأن الناس حولي ينقسمون إلى قسمين وأقولها عن تجربة وخبرة: بعضهم سيحزنون كثيراً، وهم من يحبونني، ولا أريد أن أكون سبباً لحزنهم وشقائهم. والقسم الثاني سيفرحون؛ لذا لا أريد أن يفرحوا لمرضي تشفياً بي. والأمر الثاني: لا أريد أن ينظر أحد إليّ نظرة إشفاق.

– وهل الناس قسمان فقط؟، أليس هناك قسماً آخر؟!.

– لنفترض أن هناك قسماً ثالثاً، فكيف سيكون موقفهم بالنسبة لي ومرضي؟ سيتأثرون قليلاً، ثم ينسون... قد!. والأمر الثالث، فقد عرف عادل مصادفة بالأمر، عندما خرجت من فمي كلمات دون إرادتي وتساءل كثيراً، وماطلت في الإجابة، لكنه شك في الإمر وألح عليَّ إلى أن أخبرته ببعض التفاصيل، بعد أن أقسم أنه لن يخبر أحداً، إلا أنني لاحظت إبتعاده كثيراً بعد ذلك، ولم يسألني إلا مرتين خلال ثلاث سنوات... قد يراعي مشاعري!

– ومن ثم أخبرت أحد أقربائي، وقد إبتعد هو الآخر عني، ولم يسألني منذ ذلك اليوم ولا مرة واحدة، وأخبرت أحد المعارف، وقد مر خمس سنوات ولم يسألني إلا مرة أو مرتين، لا أعرف هل يراعون مشاعري أم هناك سبب آخر؟!. أتراني متحمساً لأن أخبر مزيداً من الناس، فكل من أخبرته إبتعد عني وكأنني مسخٌ سيصيبهم ما أصابني أو أنني ميت، ولا يستطيعون التحدث أو التكلم، أو التعامل مع الموتى؟، نعم فالناس يتعاملون مع مرضى

السرطان وكأنهم موتى، أو أنهم ميتون، وكأنهم خالدون ولن يموتوا أبداً؟، كل من أفشيت له سري، كنت أظنه أن الله بعثه لي ليأخذ بيدي ويساعدني، وأنه سيعوض لي عمن خذلني، إلا أنه لم يزد قائمة المخذولين إلا طولاً. فدفعني لأن أخذ على نفسي عهداً، أن لا أثق بأحدٍ أبداً، لكنني كنت أخون عهدي مرة أخرى.

- ولماذا لم تخبر زوجتك، فإنها تحبك كثيراً، ومن المؤكد ستعتني بك، وستقدم لك كل ما تحتاجه، قالت ذلك، وكانت تحس هي أيضاً بخيبة أمل كبيرة.

- بدايةً لم أكن أرغب في أن تعرف؛ لأنها ستشعر بالصدمة، أعرف أنها تحبني كثيراً، وستقدم لي كل ما تملك، وستفعل ما بإستطاعتها، إلا أنني لم أكن أريد أن أسبب لها الحزن، لذا أخفيت عنها أيضاً.

وكان يود أن تسأله ملاك، ولماذا تخبرني الآن؟ ليقول: «تهوى الأعين من يعجبها، ويهوي العقل من يفهمه، أمّا الروح فلا تهوى إلا من يُشبهها»، وأشعر أن هناك تقارباً روحياً بيننا وتشابهاً في كثير من الأمور.

وكانت تتابع المسألة بإهتمام كبير، دون أن تظهر مقداراً من الشفقة خشية أن يحرجه. ومن ثم قطعت سلسلة أفكاره: وكيف كنت تذهب إلى المدينة الشرقية لتلقي العلاج؟، ومن أين تدبَّر المصاريف؟.

- كنت ألتحق بالمؤتمرات وأشارك في الدورات التدريبية، بالتنسيق مع زملائى هناك، كي أجد لنفسي حجة للذهاب إلى

المدينة الشرقية، وقضاء ليلة أو أكثر فيها حسب الأحوال، أشارك في تلك الفعاليات وأرتب مواعيد وجلسات العلاج، ومن مصاريفها، كنت أدخر بعض المال لأدفع مصاريف العلاج الباهظة الثمن. صحيح أن العملية كانت معقدة جداً، ولكنني كنت مضطراً لذلك، كي لا يعلم أحد أو يشك بما كنت أعانيه وأخفيه عنهم. فالناس لم يخلقوا ليهتموا بنا فقط، وحياتهم ليست ملكاً لنا، بل هى أهم من غاياتنا الأنانية.

أحست ملاك أنه لا يحتاج سوى دعمٍ نفسي؛ فحاولت مواساته، لأنها كانت مصدومة بالنيابة نوعاً ما.

– أنك بمقام أخي، ولا أميز بينك وبين أحد من إخوتي، وأنا شخصياً لا أخشى الموت، وبالنهاية جميعنا ميتون.

– مشكلتي ليست مع الموت، ولا الموتى، بل مع الحياة والأحياء، وتذكر بيت شعرٍ للدرويش كان يردده دائماً:

أيها الموت إنتظرني خارج الأرض

إنتظرني في بلادك، ريثما أنهي

حديثاً عابراً مع ما تبقى من حياتي

فلا يهم وان شيئا بعد الآن؛ لأنه تحدث أخيراً معها، ففي قلبه أحاديث كثيرة لها، ولكن مازال هناك الكثير ليحادثها، فهو إلى الآن لم يتكلم معها سوى النذر القليل، ويعلم يقيناً أن هناك أحاديث لن تجدي نفعاً، وأن هناك مسائل لا يستطيع البوح بها، وقد صارحها ذات مرة، أن هناك أربع كلمات إنتظر أربع سنوات ليفشيها، ولكنه يأس من ذلك؛ لذا فضَّل أخذها معه إلى القبر.

- أعاني صراعاً مريراً، وقد اختلط الأمر عليَّ، أاصارحهم أم أستمر في التمثيل؟ رغم أنها أتعبتني كثيراً، فأعاني من ضجيج كبير في رأسي، ومن فوضى في الأفكار؛ فالهادئون، وأنا منهم أكثرهم ضجة، والأدهى من ذلك، أنني جرّاء المرض ومعاناته العضوية والنفسية، قد يتغير مزاجي فجأة، فيحسب الناس أنهم السبب، أو قد يسأم ويملُّ أحدهم مني، ويشعر أنني لا أطيقه في الوقت الذي لا أطيق نفسي؛ فيحدث مشاكل بيننا. أو يتصوروا أنني أستقبلهم بوجه جاف، أو أعاملهم ببرودة وما شابه ذلك. ولذلك إستشرتك في الأمر، لعلكِ تساعديننيِ؛ لانه وكما تعلمين لا يمكننا إيجاد السعادة الهادئةَ ونحن نتخبط في بحر من الألم. فأحاول أن أتخلص من فوضى الأفكار لأدرك وجهتي، كيف أتعامل مع كل شيء، وأعطي كل ذي حقٍ حقه، حسب إمكانياتي ومعرفتي، وتقديري للظروف.

- لو كنت مكانك... قاطعها في الحال بشكل لا إرادي وبصوت عصبي لا سامح اللّه، حفظك اللّه من كل مكروه... لأعلمت الجميع، حينئذ من يحبني سيبقى ويساندني، ومن يكرهني أو يفرح لمرضي سينفض من حولي، وعندها لا حاجة لي بهم أصلاً؛ لأن من يحبني حقاً سيقدم لي ما أحتاجه. فأنصحك أولاً أن تتصالح مع ذاتك، وتتقبلها كما هي، وأن تخبر الجميع، فمن يحبك سيبقى معك ويساعدك، ويقدم لك كل ما تحتاجه، أما من يكرهك فسيبتعد عنك، ويذهب في حال سبيله. فإن لم تستطع أن تحبّ نفسك وتتقبّل ذاتك، كما خلقك

اللّه سأحبّك أنا نيابة عنك، سأفعل ذلك من أجلك. بإمكانك إستدانة هذا الحبّ متى شئت وتمنحه لنفسك بعدها. والأمر الآخر الذي يجب أن تعلمه، أن جميع العلاقات مبنية على المصلحة، فمن له مصلحة معك سيبقى، ومن لا مصلحة له سينفر منك بمرض أو دونه. وكأنها تقول له: إحتضن في قلبك من يستحق أن يكون معك في كل مكان، من يمنحك الود الأنيق، من يجعلك ترى الحياة بشكل مختلف، من إذا فرحت بسط قلبه لتقام سعادتك، حضوره يغنيك عن الجميع، وأحاديثه غيث تُروى بها روحك، تجده حين تحتاجه. له فقط إجعل من قلبك وطناً يليق بإحتضانه.

- لا أوافقك الرأي جزئياً، قد يكون للمصلحة دور في مدى القرب والإبتعاد، والتأثير على العلاقات بين الناس، لكنه جزء بسيط، فأين ذهب الحب، والمودة، والإنسانية، والقرابة، وغيرها من المفاهيم؟. فمن الصعب، بل من المستحيل الشعور بالحب ونحن في الخارج، خارج مركز الحب، فلنستشعر الحب علينا الغوص في أعماقنا.

- قد لا يكون المصلحة هو الدافع الوحيد، لكنه الدافع الأقوى، أو إحدى الدوافع الأساسية في أية علاقة.

- قد يكون ذلك عند بعضهم ولكنني لست منهم، ولم أصادف أولئك إلا قليلاً.

- على كلٍ، إنتبه لنفسك، وأنني مستعدة لتقديم ما تحتاجه... يبدو أنها مضطرة إلى فض الحديث، وتأجيل ما لم

يتم مناقشته بعد، وقد حسمت الأمر، وأكملت مازحة: أتدري أنني أشعر بجوع شديد، فلم أتذوق شيئاً منذ الصباح، والساعة تشير إلى الخامسة والنصف، وعليَ أن أقطع مسافة ساعة من الوقت لأصل إلى بيتي.

إذ كانت تسكن أطراف المدينة، وإزحام المرور في ذلك الوقت كان في ذروته؛ لذا إعتذر منها وشكرها على تعاطفها وإستعدادها لتقديم المساعدة، ثم قال: لا أحتاج شيئاً، سوى إستشارتك. وخذي راحتك، سأذهب إلى البيت مشياً على الأقدام فلي حديث طويل مع نفسي.

- ولكن الجو حار جداً.

وكأنها كانت تخاف عليه حر الجو، لكن إصراره دفعها للنزول عند رغبته، وفي الطريق قالت إتصل بالأُستاذ عماد، وقد تحدثت له عنك ومدحتك، وقلت له بأنك ناجح جداً في عملك، وهو مستعد لتقديم أية إستشارة.

- إتصلت به، نعم إنه إنسان بكل معنى الكلمة، فتحدثت معه لأكثر من ساعة.

وفي أثناء ذلك، يبدو أنها كانت تحاول أن تقنعه بمراجعة الطبيب النفسي، لكنه رفض ذلك رفضاً قاطعاً، ونعتهم بأطباء المجانين؛ لأنهم يتعاملون مع مرضاهم عن طريق الجداول والرموز والمقاييس والمعايير التي لا تنطبق على الجميع، دون أن يراعوا وضعياتهم المختلفة وبيئاتهم المتباينة، إضافة إلى عدم الأخذ بنظر الإعتبار بأهمية العلاقات الإجتماعية، التي تعتبر

أحد الأضلع الثلاث لأية حالة، إلا أنهم ينظرون إلى الحالة النفسية من وجهة نظر علم النفس فقط.

- لم أبق ملاك التي تعرفها، فامتلأت عينيه بالدموع، وسالت حبات منها على وجنتيه، راسمة مجرى على خديه السمراويين، كمجرى نهر في القارة السمراء سرعان ما جف. فتذكرت قولاً: يعتقد الرجال أن البكاء عادة نسائية، ومن العيب على الرجل أن يبكي، في الحقيقة هذا دليل على وفاة الطفل الصغير بداخلهم، وكأن ذلك الطفل هو الذي يبكي وليس وان، وتذكرت أن هناك قاعدة في علم النفس تقول: عندما ترى الشخص لا يبكي في موقف يدعو إلى البكاء، فاعلم أنه ضعيف. وكانت تحاول جاهدةً أن تحبس دموعها، وأن لا تنظر مباشرة إلى عينيه، وشاحت بنظرها إلى الأعلى، وتقمع ثورة الغضب والحزن والبكاء التي تفيض ألماً خلف سد منيع قد ينهار في أية لحظة.

- علبة الكلينيكس في المقعد الخلفي للسيارة، وهي تحاول أن تبقى قوية ومتماسكة.

- أرجوك توقفي، أريد أن أرتجل من السيارة وأعود مشياً إلى البيت، أريد أن أختلي بنفسي بعض الوقت، فهذه عادتي منذ سنوات، أتمشى تحت أشعة الشمس الحارقة وتحت المطر أيضاً؛ فلا أحد يلاحظ دموعي، لأنها عرق وبلل بنظرهم، ومن ثم فإنني أتحدث إلى نفسي.

أوقفت السيارة، فشكرها على هذه الفرصة الثمينة، وترجل مودعا بعضهما بالأيادي وما زالت حنجرته المصابة بالسرطان، مليئة بالبكاء، وكذلك عيناه.

وكان في طريق العودة تحت أشعة الشمس المتوهجة الحارقة، يفكر بملاك، ويشعر بإحراج شديد تجاهها، فرغم شعورها بالجوع، والتعب الشديد، كانت تهتم به وبمشكلته غاية الإهتمام، فأحس بمدى أنانيته، وإصطدم دون إرادته بحجر على حافة الطريق، فتألمت قدمه كثيراً، إلا أنه استمر من دون أن يظهر عليه؛ لأن العديد من المارة لاحظوا ذلك؛ فأسرعت خطواته، إلى أن وصل المنزل متعرقاً، من شدة الحر، وكثرة التفكير. ولسان حاله يقول: يا منزلي الجميل ها قد عدت لتحتضنني، فأخبر جدرانك ما قمت به.

وكانت ملاك مشتتة الأفكار، في طريق عودتها إلى البيت، ولكن غلب على تفكيرها شئ: إصنعوا السعادة وأهدوها لمن تحبون، فالسعاده تأتي كثيراً على هيئة كلمة عميقة، هدية من صديق، ذكرى أنيقة، دعوة من قلوب جميلة. وحينئذ قالت: أخشى أنني أزعجته، ببعض كلماتي القاسية.

أما وان، فحالما وصل البيت، وجد نفسه متحمساً لعمل المزيد من الأشغال المنزلية، والإتصالات الهاتفية، وقراءة الكتب والروايات، والكتابة، والخروج مع الأصدقاء وغيرها، إلا أن منع التجول المحدود، وقرار إلزام المنازل الإختياري ضيَّق عليه بعض خياراته.

فبدأ بقراءة منشور على الفيسبوك، وتوقف عند عبارة كررها كثيراً، وغاص في أعماق نفسه، مقاوماً لموجات تفكيره، وكررها مرة أخرى: «إنه لمن التناقض حينما نقول بأننا نريد أن نحب، لكن بنفس الوقت حينما يمنحه لنا أحدهم، نقاوم وندفعه

بعيداً لشعورنا بالتهديد لدرجة إحساسنا بأن الإنفتاح للآخر سيدمرنا بطريقة ما».

مرت الأيام، والتقيا كثيراً، ولم تحدث بينهما إلا محادثة يتيمة قصيرة عن حاله، فشكرها على إهتمامها، وأنه كان مخطئاً في عدم إخبارها منذ البداية. وطلبه الوحيد هو أن تكون قريبة منه قدر الإمكان.

وفي خضم مواجهات أفكاره، تذكر تلاطم موجات شاطئ الخليج التي تضرب بقوة حجارة الساحل، وتنكسر، لتأتي موجة أخرى، فهكذا هي الحياة، مساراتها عبارة عن أمواج تنكسر بعضها في عمق المحيط وتضمحل قبل أن تحصل على فرصة لوصول الشاطئ، وبعضها تصل الساحل ضعيفة تثير شفقة المحيط نفسه، وبعضها تضرب الشاطئ بقوة، لكنها تثير في أنفس رواد الشواطئ سعادة وبهجة، وأخرى تضرب السواحل مخلفة دماراً وخراباً، وهي تتنازع فيما بينها، فتغرق بعضها بعضاً، او تتدافع نحو شواطئ رملية أو صخرية لتموت هناك دون أثر، إلاّ القليل منها تغمر النفس سعادة، أو جروحاً وندوباً قد يعالجه الزمن بمروره كبلسم عليه، وقد لا يتعالج حتى بمرور الزمن.

بدأ محاضرته عن إحدى النظريات الإجتماعية المعروفة، وهي التبادل الإجتماعي وتكاملها مع نظرية التعلم الإجتماعي وعلاقتهما بالتماسك الإجتماعي. موضوع شيق جداً، ومتصل بواقع الأفراد والمجتمعات، فالجميع ينصتون عندما يتطلب الأمر إنصاتاً، ويتناقشون عندما يتوجب عليهم المناقشة، إلا

أفراح التي لم تتفاعل معهم في الظاهر، فيبدو أن هناك صراعاً نفسياً متأججاً بينها وبين نفسها، بين الأبعاد الثلاث من شخصيتها (الأنا، والهو، والأنا الأعلى). وعندما وصل إلى ذروته، ووصول المحاضرة إلى قمتها، حدث نقاش بينها وبين الأستاذ الذي قال: الحياة قصيرة جداً، لا يمكننا وليس من المنطقي أيضاً أن نجرب كل شيء، فيجب وحسب النظرية أن نتعلم من بعضنا بعضاً، أن نتعلم من أخطائنا وأن لا نعيدها مرة أخرى، فإن جرب شخص شيئاً وكان سيئاً، لسنا مجبرين على أن نجربه نحن أيضاً، وإن ثبت بالتجربة سواءً الذاتية أو عن طريق غيرنا مضار شيء ما، يتوجب علينا تجنبه أو معرفة كيفية التعامل معه، سواءً كان مادة، أم فعلاً أو قولاً، أو تقريراً، أو أي شيء آخر.

- دكتور، أخالفك الرأي، ولد الإنسان ليجرب كل شيء، وأعيد وأؤكد كل شيء.

- أفراح ليست كل الأشياء، ولسنا مجبرين على ذلك، فالحياة لا تسعنا، وهو أمر غير منطقي أيضاً.

وعندما رأى أن المناقشة عقيمة وستصل إلى موقف محتدم، حاول تجنب النقاش، وتأجيله إلى وقت آخر.

- أفراح، دعينا نكمل المحاضرة، ولي معك لقاء خاص، وسنحسم الأمر في ذلك الوقت إن أردت.

- نعم بكل سرور أتوق إلى ذلك... إذ إنها وأخيراً وجدت من يناقشها آرائها وأفكارها الجريئة.

وحال إنتهاء المحاضرة وقيامه بلملمة أغراضه وخروج زملائها، ذهبت أفراح وسلمت عليه بابتسامة عريضة، واضعة يديها على الطاولة، دليلٌ على استعدادها للمناقشة وحتى الاحتدام إن تطلب الامر.

- نعم أفراح. ولكي يتجنب الاحتدام الحاد، قال: أوافقك الرأي جزئياً، ولكن هناك قواعد وأعراف وقيم وقوانين، وعادات سواءً الفردية أم الجماعية، الشخصية أم الاجتماعية، القانونية أو الدينية.. الخ، تمنعنا من القيام بذلك، ورأيك الشخصي أحترمه جداً، ولكن ما قلته ليس فقط رأيي الشخصي بل إجماع علماء الإجتماع وعلم النفس وباقي العلوم الإخرى المتعلقة. ولن أطول عليك كثيراً، فما أقوله شيء إعتيادي يتوافق مع العلم والمنطق والآداب العامة. وقد استمعت إليَّ، لذا جاء دورك للتحدث وسأستمع إليك دون مقاطعة.

- لقد جربت كل شيء، الملابس بأنواعها، الصداقات بتباينها، أنواع المشروبات الكحولية، أنواع المخدرات، دون أن أدمن عليها، ودون أن يكون لدي الرغبة في إعادة التجربة، فقط جربتها من باب الفضول فقط، وأن أتذوق طعمها. فأحيانا نحن بأنفسنا نعيق تقدمنا وتحررنا، أتعرف لماذا؟ لأن الأرواح المتقوقعة في أعماقنا، تمتص طاقة الحرمان وتستهلك الإبداع، تتغذى المشاعر والأحاسيس الدنيا القابعة في أعماقنا، والمتعلقة بذواتنا المظلمة، لكننا نواجه مقاومة مستميتة، أتدرك السبب؟ إنها الأعراف والتقاليد البالية، إنها قوة التعود على القناعة في

أن نقبع ضمن دائرة الراحة، دون وعي منا. فالقدر له مسارات متعددة لابد لنا من أن نختار المسار المناسب لنا، أو أن نرسم مسارنا الخاص، فلسنا ملزمين بأن نتبع المسار المرسوم لنا من قبل غيرنا وأن نتبع خطاهم، ونحن نعرف سلفاً أنهم أخطئوا.

فرد عليها الأستاذ بالإسلوب الفلسفي ذاته: وهل تدركين أنه عندما تحاولين التغيير والصعود على سلم السلام النفسي والنقاء الذاتي والسكينة والطهر الباطني؟، فستجدين أن شيئاً ما يحاول إرجاعك للأسفل من جديد، وسأقول لك إن قوة الاستمتاع هو بما تقومين به، دون غيرك، لأنه أمر شاذ عن المألوف، حسب قاعدة كل ممنوع مرغوب لغياب المرجعية العقلية، إنه التظاهر بالجرأة، والخروج عن الدارج. ثم تذكري أن هناك تجارب تأبى أن يخرج صاحبها سليماً. ولن أقول لكِ شيئاً آخر، سوى أن لديَّ تساؤل، هل أنت نادمة أم مصرة على الاستمرار؟.

- مصرة من حيث المبدأ؟، ونادمة من بعض التصرفات خصوصاً الحب؟، فالجميع لا يستحقونه. وإيقنت أن الحب الحقيقي هو لشخص واحدٍ فقط. ولكن لا أعرف ما أسمي غيره.

- إنه حب الذات السفلية لا غير.

- لا سلطان لي على قلبي، ينبض لمن أراد، ومتى ما أراد، وكيفما أراد. والجنون مع من نحب تجربة مُختلفة.

- يبدو أن عقيدتك في الحب غير سليمة.

- إنه قلبي، لا يعرف عقيدة، وليس له مبدأ.

– إنه قلب محيَّر، عالق بالقشور، يحب الجمال الجسدي بدلاً من النقاء الروحي.

– وأكره طقوس الحب المزيف، خصوصاً عندما يحمل شاب وردة ويعطيها لحبيبته.

– نعم فهناك من يقطف الورود، ليس من أجل حبيبته بل ليأكلها ... لأنه تيس.

– صحيح دكتور فبعضهم يخدع الفتاة بحبه ليسد جوع شهواته؛ ولهذا فإنني يائسة من الحب، ومن الحياة السعيدة، صحيح أنني سعيدة من الظاهر، أضحك، أبتسم، أمرح، وأغني وأرقص، وأتحرش ليس بالشباب فقط، بل وحتى بالشابات أيضاً، إلا أنني يائسة منكسرة من الداخل.

– لم يمنحك اللّه الحياة لتكوني قصيدة رثاءٍ، أو قصة يأس أو فصلُ حرمانٍ، ويجب أن تعرفي أن من يضحك لأتفه الأشياء، فهو حزين يائس من الداخل. وقد اعترفتِ بذلك: فتصيد أخطائك سلوك غير محبذ ودليل على كرهك لنفسك، ولا تهتمين بها كما يجب؛ لذا كوني محبة متقبلة محتوية لذاتك، وقدّري نفسك. فهناك ما يسمى بمقبرة الأخطاء، فيجب أن تكون لدينا مقبرة ندفن فيها دائماً أخطاءنا وأخطاء الآخرين، لنتمكن من التواصل مع أنفسنا ومعهم، ونستطيع مواصلة حياتنا معهم، فدفن الأخطاء والتغاضي عنها أفضل من خسارة أنفسنا وخسارة الناس، لخطأ بسيط، أو لخطأ جسيم ولكنه غير مقصود، أو مقصود ولكنه ندم

عليه، فكما كل الدروب محفوفة بالعقبات، والمخاطر أحياناً، كذلك العلاقات، علاقتنا بأنفسنا وبالآخرين.

وأخيراً سأقول لك: هناك أشياء تحدث دون معنى، ومن تلقاء نفسها لا تعطي لنفسها معنى، إلا أن معناها متروك لنا، فإن استطعنا أن نعطيها معنىً جميلاً، فهو مؤشر على أن لنا روحاً جميلاً، وإن لم نستطع فأنت تعرفين الجواب؛ لذا من الأفضل علينا أن نتركها هكذا بلا معنى.

فابتسمت؛ لأن الكلمات قد لامس روحها، ودغدغت عواطفها وحرّكت مشاعرها، وعلامات الندم كانت واضحة على وجهها الطفولي، لكن الندم لن يفيد، بل عليها أن تفكر كيف تبدأ بالتغيير الجذري، وتتعلم دون أن تجرب.

ولكي لا يتركها في دوامة الصراع النفسي، قال لها: لا تسمحي أن يدخل إطار حياتك، ولا تدعيه يضعك في مرمى الإتهامات، كائناً من كان، ولا تسمحِ لعلاقة تجبرك دائماً للدفاع عن تصرفاتك وسلوكياتك، وتجبرك لتبرير أفعالك وأقوالك؛ فتخسرين فيها نفسك. فأنت لست سيئة بالضرورة، ومن لا يتقبلك ليس سيئاً أيضاً، إلا أن الأرواح مذاهب ولكل مذهب أحكام، ومهما اختلفت الآراء والطرق يجب أن يكون الإحترام حاضراً، فتعيشِ كما تشائين، لا كما يشاء المجتمع، دون أن تتجاوزي القانونَ أو الآداب العامة.

استثمري طيشك في مشروع ما، فهو طاقة نابضة متجددة، قد تنضب يوماً وتصبحين إنسانة إعتيادية كالجميع، فأنت تملكين

شخصية متميزة، ولكنك تستثمرين هذا التميز وتلك الطاقة في غير إتجاهها الصحيح... لكنها بقت صامتةً، ولسان حالها يقول: كن لنفسك كل شئ، فالجميع قصة لها نهاية. ولا تحاولوا إخفاء آثامكم بفضائلكم المزيفة، فآثامنا جميعاً متشابهة.

****

مسافة قليلة تفصل بين مكتبه والقاعة الدراسية، فيقطعها بخطى واسعة وسريعة كي يأخذ قسطاً من الراحة، إلا أن نور كان في إنتظاره بالمكتب.

- نور، هل حلفت أن تزعجني كل إسبوع، خلافاتك مع زوجتك لا ولن تنتهي، ما لديك اليوم؟.

- نعم دكتور كالمعتاد (قال نور مبتسماً رغم إرتباكه)، ولكن هذه المرة، الأمر في غاية الخطورة، إذ وصل إلى الطلاق، نعم لقد طلبت زوجتي الطلاق، لقد تحولت من فتاة مرحة، متفائلة ومقبلة على الحياة إلى كتلة من الصمت وكأن الهم وضع كفه على فمها، وأصابها الحزن والعزلة والكآبة، بل وقنبلة موقوتة. فماذا أفعل؟، وأنا لا أرغب بتطليقها، بل بالعكس، أريد أن نسترجع حياتنا الزوجية السعيدة، فمن اليوم الذي عرفتها أصبحت للحياة ألواناً لم أكن أراها من قبل.

- وهل كانت كذلك منذ البداية؟ فالأساس الذي وضعتم غير سليم، أما أحلام فكانت مخطئة جداً، والآن تدفعان ثمن جرم إرتكبتماه بحق شخص، لم يرجُ لكما إلا الخير.

– ولكن استاذي العزيز، لقد حدث ما حدث، ودفعنا الثمن أضعافاً مضاعفة، ألم يحن لأن نستمتع بالحياة، نعيش بسلام ووئام؟. (كأنه يوافقه الرأي، ولكن بعد فوات الآوان). صحيح أني خنت صديقي، وأحلام خذلته، نعم كانا يحبان بعضهما بعضاً، ويموتان عشقاً لبعضهما، مدركٌ لما بينهما من حب وعشق، فعملت على التفريق بينهما كي أتزوجها، وأمتلكها لنفسي. إلا أننا قدَّمنا ما لا طاقة لنا به من التضحيات الجسام، ورغم قيامي شبه المستحيل من أجلها، فإني أراها لا تتحملني، ولا تطيقني، وتعاملني ببرودة شديدة، وأنا أيضاً أعاملها بمثل ما تعاملني أحياناً، من دون وعي ولا إدراك، ولا أريد أن يحصل ذلك بتاتاً، ومن جرّاء الصدمة أي حدوث ما هو غير متوقع، فقد أصابتها كآبة شديدة، وقد راجعنا أطباء كثر، ومنهم النفسيون، دون جدوى.

وأخيراً، فقد حاولت الإنتحار أكثر من مرة في فترات متقاربة وبطرق مختلفة، خاصة بعد أن علمت أن خطيبها السابق، قد إنتحر لعدم تحمله هول الصدمة، فهي تحملني ونفسها مسؤولية ما حدث له، وتردد دائماً: نحن لا نستحق الحياة، لسنا بشراً، ولا نحمل ذرة من الإنسانية. وكان وان يهز رأسه دليلاً على أنها محقة.

– إعلم يا عزيزي، أن كل شئ يلين بالتعود والإلفة، ولكن عليكما مواجهة الحياة، وكفِّرا عن خطئكما، وواصلا حياتكما دون أن توسعا دائرة الجرم، فتدخلا في حداد دائم، وتزداد

الضحايا؛ لذا عليكما أن تقبلا ذاتكما، وتبدءا بالتصالح الذاتي، والإعتراف بالخطأ دون شروط، فالإعتراف به فضيلة. وأعلم أن الوفاء راسخ في النفس الإنسانية، والقسوة والخيانة، مجرد شعور طارئ وظاهرة مرضية تدل على خللٍ في حياته. وعليك أن تعيد الدفء والحماسة لعلاقتكما الزوجية، فقط أنكما تحتاجان لأن تشعرا بأنكما جزء من شيء أكبر، من منظومة إجتماعية أوسع، وأن الآخرين يهتمون بكم. ويجب أن تعلما «أن البعض يعيش عمره حَسرةً علي قِطار فاته ولن يعود، والبعض ينتظر قطاراً، قد يأتي أو لا، وآخرون يبحثون عن قطار آخر. فالفرق بينهم كبير وهي إرادة الحياة». ولكن يجب أن تدركا أن الحياة هي «بجمال يوسف، وحزن أبيه، وغدر إخوته».

فشعر نور أن هناك أموراً كثيرة تغافل عنها، مما عليه أن يعرفها ويتعلمها، كي يدفع عجلة الحياة إلى الأمام، نعم لقد خانا شخصاً وأفسدا حياته، وكانا سبباً لإنتحاره، ولكنهما دفعا الثمن، وآن الأوان ليعيشا حياتهما الطبيعية، فالتأنيب لن يفيد شيئاً، سوى إحتقار النفس. ومثلهما كمثل حبيب يغارُ على فتاة، وهي ليست له، أو كفقيرٍ، يحرسُ مال غني دون أن يطلب منه ذلك. ونصحه: لا تكثروا إفشاء الأسرار، فللجدران آذانٌ، ولا نعرف متى يخون المنصتون.

ثم ألم تسمع أن طالباً روسياً وصحفية روسية قد تزوجا عندما إلتقيا في مركز للحجر الصحي في مدينة ووهان الصينية بعد أن وصلا إلى روسيا؟، حيث كان الحجر سبباً لأن يلتقيا

ويتحدثا إلى بعضهما بعضاً في أمور كثيرة، فاكتشفا أن كلاهما يحبان الموسيقى، والكيمياء وأشياء أخرى مشتركة، فحدث بينهما من التناغم الروحي والوئام النفسي كي ينجذبا إلى بعضهما البعض. وأخيراً إعلم يا نور: أنكما ستدفعان الثمن غالياً، ولكن كيف؟ وأين؟ ومتى؟ لا أعلم؟، وأرجو أن تكونا مستعدين لذلك.

- الشئ الوحيد المتفاهم معي هو حظي العاثر، لأنه متيقن أنني لا أعتمد عليه، وأنا لا أشك في أنه سئ.

- نور، أراك ضائعاً تائهاً هائماً لا تعرف وجهتك؟

- نعم دكتور وصف دقيق لحالتي.

- هناك تمرين عليك القيام به مرة أو مرتين على الاقل في الأُسبوع، نسمية بـ (تصفية الذهن) خلال ساعة من الزمن أو ما يقاربها، تقسمها إلى نصفين، النصف الأول تنفرد فيها بنفسك، وتعود إلى ذاتك المهملة، وتفكر ملياً بحالك، دون غيرك، والنصف الثاني تخاطب فيها ماضيك، وتقارنه بحاضرك، حينها ستعرف موقعك، ووجهتك، وأين وصلت، وماذا تحتاج، وسترى الآخرين بوضوح.

ثم قال مازحاً، بما أنك فهمت الرسالة، وأدركت الخطأ، وتعرف كيف تتعامل معه، فدعني أذهب إلى محاضرتي، بعدما منعتني من الإستراحة.

****

لم يدرك وان أن أنوار زميلة لارين، قد حضرت المحاضرة أو أنه لم يكن يتذكر ذلك، أو ربما نسي الأمر من جملته، إلا أنه

ولحسن حظ لارين، كان موضوع المحاضرة هو التمييز في العمل، وبعد التطرق للنظريات النفسية والإجتماعية في ذلك الخصوص قال: كلنا نعيش، كلنا نعمل، كلنا نمرض، الكثير منا يدرسون، يثابرون، ولكن من هم العظماء؟. فهم أناس مثلنا، لكنهم سلكوا طرقاً لم يسلكها أحد، أو سلكوها بطريقة لم يسلكها غيرهم، أي دخلوا في التفاصيل، ودقائق الحقول المعرفية، دون أن يكتفوا بالعموميات، أشغلوا أنفسهم بالجزئيات فابدعوا فيها، ولفتوا أنظار الناس، والتفتوا إلى عظمتهم.

سأضرب لكم مثلاً بسيطاً كي تتوضح الصورة أكثر، وحاولوا أن تجربوها بعد المحاضرة، أو أنكم مررتم بموقف مماثل ولكن دون وعي؛ لذا لم تشعروا به، فكلما ابتعدت عن الناس زادوا جمالاً، ورونقاً، وزادت رغبتك في الإقتراب منهم؛ لأنك لا تر تفاصيلهم السيئة، بل تراهم بمظاهرهم التي يريدون أن يظهروا بها، تراهم بالعموميات وكلهم تقريباً متشابهون؛ لذا فسترى التناسق والجمال، ولكنه جمال غير حقيقي، جمال عام طبيعي واعتيادي.

بعد المحاضرة الشيقة طلبت أنوار من صديقتها لارين أن تلتقيا بالأستاذ، الذي رحب بهما، ودخلت أنوار صلب الموضوع دون مقدمات.

- كنت في حيرة من أمر إحدى صديقاتي، فكلما إقتربت منها نتشاجر ولأتفه الأسباب، فنستاءُ من بعضنا بعضاً ونتنافر لفترة من الزمن، ثم نشتاق لبعضنا مرة أخرى، فنخلق الأعذار كي نقترب من بعضنا ونعبر عن ندمنا، وما هي إلا فترة قصيرة

نتشاجر مرة أخرى لأتفه الأسباب، ونختلق الأعذار كي نبتعد، وهذا حالنا منذ سنين، والآن فهمت العلة، وإنفك اللغز.

كانت طوال حديثها تتكلم بحماسة وتحرك يديها يميناً ويساراً، فلفَتت أنظار لارين التي لم ترها بهذا الإندفاع والحماسة أبداً؛ لذا قالت مبتسمة، مبدية إندهاشها:

- أنوار أهذه أنتِ؟!، لم أعرف أنك تملكين هذه المهارة في الخطابة!.

- الآن عرفتي بعد أن دخلت في بعض التفاصيل الدقيقة، كي تعرفي أنني عظيمة.

- وما دوري في المسألة؟.

فسكتا ليسمعاه وهو يقول: بما أنك واثقة من نفسك إلى هذه الدرجة، سأبوح لك بسر، حاولي أن تستفيدي منه: كلما اقتربت من الناس ستلاحظين التفاصيل التي تميز بعضهم عن البعض، فسترين جمالاً من نوع آخر، الإختلاف والتنوع، الحقيقة التي قد لا يريدون إظهارها، ولكن بما أنها الحقيقة، فهي ليست في غاية الجمال فحسب بل الجمال بجوهره. وفي الحالتين ستخسرين الكثير؛ لذا حاولي الإتزان والموازنة بين الإبتعاد والإقتراب، بين العموميات والجزئيات، بين الخصوصيات والمساحات المشتركة.

ويبدو أن أولى ضحايا تطبيق أنوار لذلك السر، كانت صديقتها المخلصة لارين، التي كانت في حيرة من أمرها، فبعد ذلك اليوم لم تتصل بها، وكلما إتصلت، تختلق الحجج

للإستئذان. فهي دائماً منشغلة عنها، وقد مرت الأيام وعلاقتهما في فتور مستمر. وليست لارين فقط، بل يبدو أنها رسمت حول نفسها حدود ملتهبة، أحرقت كل من حاول إختراقها أو تجاوزها بعدم التجاوب والتعامل البارد.

وكانت أنوار تردد مع نفسها: هناك أشخاص تفرض محبتهم على قلوبنا دون طرق أبوابه، فتبقى أماكنهم فيها شاغرة كأنها حجزت لهم فقط دون غيرهم، نشتاق لهم بصمت قاتل، نتذكرهم بحنين لا يهدأ، فعبق طيفهم يلوح بالحضور، تنبض قلوبنا من أجلهم كل حين، وأفكارنا تهرب من عقولنا، تناديهم مع كل ذكرى: إشتقنا لكم، ومكانكم في القلب فارغ.

****

مرت الأسابيع والشهور، ولم تسأل ملاك عن حاله، ومرضه، رغم كثرة اللقاءات. فيقول في نفسه أحيانا: ما الفرق بين ملاك وبين كل من عرف بحالي وانفض من حولي، إلا أنه كان يتراجع عن كل ذلك، ويقول في قرارة نفسه: لو سألتني أنها تشعر بالتقصير في حقه فسيجيبها: عزيزتي، لا داعي للإعتذار، أقدِّر إنشغالك بأمورك الشخصية، وكل ما تعانين منه مثلنا جميعاً، وإنشغالك بعملك، وعائلتك، ولا أتدخل في شؤونك الشخصية، وأنت أقدر بظروفك والتوازن في علاقاتك. فكلنا ننضج على نار الحياة الهادئة، التي إن إزدادت شدة حرارتها إحترقنا، وإن إنطفأت فلن ننضج أبداً؛ لذلك لا داعي لأن تقلقي بشأني، فقد تأقلمت مع مرضي، وأنا الآن على صداقة ووئام

وتناغم معه، إذ أصبحنا أصدقاء؛ لأنني أيقنت أنه سيلازمني مدى الحياة، ولن يتركني للأبد، وأشعر بأنه صديقٌ وفيٌ رغم ما بيننا من تنافر في بعض الأحيان ويزعجني كثيراً، وأنا أيضاً أسبب له الإزعاج بتلقي العلاج، وهذا حال الأصدقاء والمحبين، فالمشاكل والنزاعات ملح الحياة، ولا علاقة دون مشاكل ونزاعات، ولا عتاب إلا بين الأصدقاء والمحبين. ولكن على الأرصفة المخيفة، أرصفة الصمت المرعب، تموت كل الأشياء التي طالما حلمنا أن نتحدث عنها، ولم نفعل. فإن سئمتُ من تفاصيل الواقع صنعتُ خيالاً يُسعدني.

وبما إن ذلك الحوار لم يحدث بينه وبين ملاك، فكان يحاول دائماً إجراء حوار مع خيالها مع ملاك القديمة، التي كانت تسأله فيجيب هو بكلمات يختارها بعناية فائقة، كي لا يسبب لها أدنى إزعاج.

وذات مرة، سألته ملاك: وان، كيف حالك؟ هل تتابع علاجك؟ أين وصلت معه؟ أتحتاج شيئاً أم لا؟ فاقتنص الفرصة التي جاءته دون سابق إنذار.

- شكراً لإهتمامك، لم يعد أمامي حل آخر، لقد أصبحت صديقاً له؛ لأنه لم يفارقني إلى الآن؛ لذا كلما أصبحت وحيداً، وكلما احتجت للحديث، ولم أجد من يواسيني، ذهبت مع صديقي (مرضي) إلى الجبل، وتحدثنا وواسينا بعضنا بعضاً، فيخفف عني الألم، لذا فقد مسحت الوحدة من بين مفردات قاموسي. فاكتشفت أن بداخلي منجم من الحب والإهتمام

والرحمة، فعاتبت نفسي، كل هذا وأنت تشحذ من غيرك؟، ويا ليتك وجدت الفتات. أما مسألة أأحتاج شيئاً أم لا؟، فلا أحتاج أحد بعد الآَن، سوى اللّه. صحيح أنني أحتاج الجميع، لكنني لم أجد إلى الآن من يقف بجانبي، لقد مررت بأصعب فترات حياتي، دون أن أجد من يقف معي، لقد مرت عليّ محن ومصاعب كبيرة جداً، ولكن اللّه سهّل عليّ، ولا أعرف كيف مرت تلك الأيام الصعبة، قد أكون أنا السبب فلم أخبر أحد لسنوات، ولم أخبر من سيقف معي، ولكن كل من عرف محنتي إبتعد عني. كنت أجمع النقود قطعة قطعة، وكنت في كل جلسة علاج أحتاج إلى مبالغ كبيرة، فتمر الأسابيع والشهور على موعد الجلسات ولم يكن بين يديّ ما أدفعه لمصاريف السفر والإقامة والجلسات والأدوية.

– ولماذا لم تطلب المساعدة ممن هم حولك؟... قالتها ملاك بنظرة، قرأ فيها وان الخوف، والرجاء، والتساؤل. فرد على رسالتها بنظرة عتاب، وألم؟

– عزيزتي، لم يكونوا مستعدين لقضاء دقيقة من وقتهم معي، لم يكونوا حتى يتصلون بي، كانوا يهدرون أوقاتهم المملة بأشياء تافهة حتى بالنسبة لأنفسهم، بينما كانوا بخلاء معي، كانوا يتجنبونني، فكيف تتصورين أن يساعدونني بالمال وقد بات من أساسيات الحياة؟ ومن ثم كنت ومن كل قلبي أرجو أن يتجاهلني الجميع، فأي إهتمام منهم كان يرتب عليّ إلتزاماً بالمقابل.

– يبدو أنني أيضاً مقصرة في حقك.

ولكي يبعد عنها شبح المقارنة، الذي لم يرق له ولا لملاك، قاطعها وبشدة.

– رغم أن النتيجة نفسها، إلا أن الأمر بالنسبة لي ليس مسألة السؤال والإستفسار المتواصل، وليس تقديم المساعدة ومد يد العون، ولا الوجود الدائم معي، أو الدعم النفسي أو المعنوي أو المادي فقط. فلا يهمني كل ذلك، ولله الحمد، لقد كنت قادراً وبعونه تعالى، على تدبر مصاريف العلاج، وإيجاد أوقات للعلاج النفسي، وعائلتي تدعمني. أما ما أحتاجه فليس بالشيء المكلف، سلام مرسل، سؤال عندما تسنح لك الفرصة، مكالمة هاتفية، رسالة صوتية أو نصية، أقرؤها دائماً فأستمد منها الدعم والقوة، أو حتى دعاء في الغيب. فإن قمت بأي مما سبق، فقد قدمتي لي دعماً كبيراً، ولا شك لدي في ذلك، وأنا ممتن لك مدى الحياة. وخاصة إستحضاري دون وجودي، إنني أثق بنفسي وبعمق، لأنك شاهدة في حياتي، عند غيابي، وأنا كذلك، ولذلك فهي فرصة كبيرة تجلب لكلينا المحبة والشفاء، وهذه الدرجة من التخاطر والتواصل لا تتطلب سوى الإستعداد لدعم غاياتنا العليا.

ففاضت عيناها بالدموع، لكنها حاولت إخفائها رغم فوات الأوان، وقالت في قرارة نفسها: كنت أستطيع القيام بالكثير مما كان يحتاجه، إلا أنني حقاً قمت بذلك.

وفي تلك الأثناء كان وان في غبطة وسعادة وسرور، ويحسد نفسه أن له صديقة مثل ملاك، تعزه، وتهتم لأمره وتقدر

ظروفه، وتعامله بعطف وحنان، فهي في نظره ما زالت الفتاة ذات الإثني عشر عاماً، الصغيرة الناضجة، الشخصية القوية التي يمكن الإعتماد عليها، والتي نضجت لتكون قادرة على التعامل مع كل حدث بإتزان، إتزان العقل والعاطفة لما حمل لها القدر من المصاعب والأهوال ما تزيد من أيام عمرها. بإختصار إنها في نظره قوية كالحرب، ناعمة كالسلام، وكأنها إستثناء من الجميع.

ملاك الفتاة الذكية، التي تقرأ الأفكار، لاحظت غوصه في عمق أفكاره، فحاولت تجنيبه الغرق في بحرها.

- تتبعت معلومة، أخبرتني ذات يوم بأن الانفلونزا لا تصيب الأطفال إلا نادراً، لقد كان صحيحاً، إنه خبر مفرح لمثل هذه الأيام، حيث إنتشر المرض، وسمعت أيضاً أن الشباب ومتوسطي العمر يستطيعون مقاومته.

- ذكيةٌ، كما أعرفك... واصبحت قوية الشخصية.

وتذكر مقولتين ترددها ملاك كثيراً على أسماعه، لك معزة خاصة لديّ، أحبك كثيراً، وتعلمت منك قوة الشخصية. وحينما سمعها مرة ولكن بكلمات مقاربة (لكنك أعز إلى من أن ينتهي أثرك)، تنفس كلماتها حتى دخلت أعماق قلبه، فإبتسم قائلاً في نفسه: الأفعال هي التي تؤكد صدق المحبة، أما الكلام فالكل فلاسفة، وكأن ملاك سمعته فإبتسمت هي أيضاً، إلا أن وان ما زال شارد الذهن، وكأنه في حيرة من أمره، إلا أنه كان في تفكير عميق، يفكر بطلابه الذين شرح لهم المحاضرات بالـ (أون لاين)

هل إستوعبوا المواضيع؟، أم كان صعباً عليهم هذه الطريقة؟، هل كانت وسيلة فعالة؟، أم لا؟.

وبموازاة ذلك كان وان يفكر بصديقه شاكر، وزوجته وسوزان، يا ترى هل استطاع أن يختار إحداهما، أم مازال في حيرة من أمره؟ وهل آمن بالمثل الهندي القائل: القلب يدق للحبيب مرة واحدة، فإن دقَّ ثانية فكان حبه الأول غير حقيقي. وهل تخلصت زوجته من تشاؤمها؟، أم إنتصر حبها النقي لزوجها رغم ذلك؟، وكسر قواعد قانون الجذب؟. وماذا فعلت سوزان؟، أمازالت تقاوم فطرتها النقية؟، أو إستسلمت لنوازعها الشريرة؟ ومنحت نفسها فرصاً أخرى لخداع أناس آخرين؟، وبالتالي خداع نفسها؟.

- كريم إبن عم سوزان، هل تمكن من إقناع عائلته المحافظة؟، وحبيبته المنفتحة وإيجاد نوع من التوازن وتقديم بعض التنازلات لخلق النقاط المشتركة؟، فيربح الجميع.

- وار، هل تخلص من فكرة الإنتحار؟، ومتابعة حياته كغيره؟ يواجه الحياة، أم مازالت تلك الإفكار تراوده؟

- هدى التي غادرت خائبة الأمل، أمازالت تهرب منه؟، أم إقتنعت بنصيبها وقدرها؟، أو تحقق حلمها ووجدت فارس أحلامها؟، وإزدهرت تجارتها؟، ونست ما هو ليس لها؟

- شيرين، التي أخذت دروساً وعبراً كثيرة، عندما كانت شاهدة على حب ولد ميتاً بالنسبة لهدى، لكنه مستمر، وبالنسبة لِوان لا يمكن أنَ يسمى حباً، بل إعجابٌ لا غير.

- لارين، أما زالت في حالة التغيير نحو الأفضل وتشع روحها مرحاً وتفاؤلاً، ومصدراً لإنبعاث الأفكار الجميلة، والأمل للآخرين في المجتمع؟، أم وقعت تحت تأثير المتشائمين في المجتمع وأفكارهم السوداء؟. هل تمكنت من إسترجاع علاقتها المتميزة بأنوار؟ أم ما زالت أنوار تلعب لعبتها المفضلة معها؟. أم أنها كانت تقوم بمراجعة قائمة أصدقائها، وتعيد ترتيبها حسب أبجدية الوفاء لا حروف الهجاء؟.

- أنوار، أمازالت واثقة من نفسها؟ هل تعلمت الإتزان في الحياة؟، الإتزان في العلاقات والمسافات؟، أم ندمت على معرفة السر؟؛ لأنها فهمته دون أن تطبقه بوعي أو تطرفت في تطبيقه؟؛ لأن المقادير تختلف من شخص لآخر، من موقف لآخر، من حال لآخر، ومن وقت لآخر؛ لأن الإنسان كائن في غاية التعقيد، ولايمكن قياس بعضهم على بعضٍ، أو المقارنة فيما بينهم.

- ليلى وليليان، الثنائي المرح، إبنتا العم، هل إستطاعتا من تحقيق التوازن بين حبهما المتبادل، والزواج كسنة بشرية، أم ستطالهما يد العنوسة جرّاء العاطفة الجياشة تجاه بعضهما بعضاً.

- ناز ورحاب، فيلسوفتا زمانهما، ماذا فعل بهما الزمن؟، وأي مسار رسم لهما القدر؟ ناز، هل إنتهت من قراءة سلسلة كتب علم الآيزوتيريك؟، التي إستعارت من أُستاذها، أفهمت شيئاً؟، وهل إستفادت مما فهمته؟، أم زادت من ثقافتها العامة

فقط، كمعلومات يتم ذكرها في المجالس وبين الأصدقاء كي تتباها بها؟. أو تقافزت على الكلمات والأسطر على أمل أن تفهم منها شيئاً.

ورحاب... ماذا حل بها؟، هل تناغمت مع حبها الجديد؟، أم مازال قلبها يدق لخطيبها السابق الذي فسخ الخطبة إثر مزحة تافهة؟.

- أفراح الشقية أما زالت تائهة؟ أم إستطاعت من ضبط نفسها، وتحويل بوصلة الحياة نحو الإتجاه الصحيح؟، وتخلصت من دوامة النزاع النفسي والإجتماعي؟، ووجدت مشروعاً تروض بها طيشها؟.

- نور، هل تواءم مع زوجته؟، أم يتظاهران بالتناغم الروحي؟، ومازالا يقدمان التضحيات جرّاء فعلتهما؟.

- نازك، هل شفيت فعلاً من مرضها الخبيث؟، ودخلت قائمة المتميزين.

- رامان، الذي تعلم من وان وجوب تقبل نفسه، والتصالح مع ذاته، ليستطيع مواجهة مرضه؛ لأنه لم يجد حوله من يساعده ويسانده، وانفض من حوله كل من علم بسره؛ لأنه مصاب بالسرطان، وكأنه مصاب بكورونا فايروس الذي أصبح مرضاً مخيفاً جداً بل ومرعباً، حتى وصل إلى مرحلة وصمة العار.

- نورهان، هل فهمت حكم والدها؟، أم تظاهرت بفهم بعضها؟، وإنتظرت كي تكبر لتجرب حتى تفهم؟، وهل إقتنعت بأجوبته؟، أم هزت رأسها متظاهرة بالفهم؟.

- رّواء وزوجها، أمازالا يتشاجران في الأماكن العامة، فيتطّلع على شجارهما المارة والموجودون في تلك الأماكن؟، أم تعلما كيف يتعاملان مع نزاعاتهما اليومية، ويستثمران فيها كفرص لإظهار الخلافات ووجهات النظر، فتكون سبباً لهنائهما وسعادة أسرتهما.

- سمر؟ أما زالت تتابع صفحته؟، وتتطلع للقاء آخر في ملتقى دولي آخر؟ أم يئست وعرفت موقعها في قلبه؟، حيث زاوية مظلمة مهمشة، أم أن أخبار الكورونا فايروس المفزعة قد أشغلتها عن ذلك؟. وهل مازالت تمارس لعبتها؟

- عادل، تجاهله وان، كما تجاهله هو أيضاً، ليس معاملة بالمثل، بل ليريح قلبه، فالتجاهل عبارة عن وداعٍ بطريقةٍ قاتلةٍ يجعل مشاعرنا تتمزق ببطئ.

- آمال، أفهمت فلسفة الحياة الزوجية؟، وتصالحت مع زوجها، وتداركت خطأها، وشكرته ألف مرة قبل أن تبادر إلى التطليق وهدم أسرتها، وتحطيم قلب زوجها وقلبها أيضاً جرّاء سوء تفاهم غير مقصود؟

أما ملاك، فقد علمت وفهمت الكثير من الأشياء المخفية وخبايا الأمور، ولكن أسرار كثيرة، ما زالت خافية عنها، أو مبهمة غير واضحة المعالم، وأمور لم تتوضح بعد، قد يكون الزمن كفيلاً لرفع المستور عنها، وقد لا تطالها حتى يد الزمن أيضاً، فتظل دفينة في مقبعها المحصن.

وأنت يا ملاك: فتستحقين أن يُحبك أحدهم من كل قلبه، يعشقك، يرى فيك حاضره ومُستقبله، يفعَلُ المستحيل ليسعدك، مستعدٌ لأن يرحل عن الجميع سواك، يتقبّلُ ما أنت عليه من حُزنٍ وسعادة، من مرح وإنعزال، يُحبك حتى في الذي تكرهينَ فيه نفسك.

– وان أين سرحت؟ وسؤالي الآخر، مثلما يقولون أن كورونا عبارة عن نوع من الإنفلونزا. وبما أن الإنفلونزا لا تصيب الأطفال، فكورونا أيضاً لا تصيبهم.

– نعم، نادراً جداً، بسبب قوة مناعتهم خصوصاً من رضع رضاعةً طبيعية. أما الشباب فلقوة مناعتهم إن أصابهم فسيستطيعون مقاومته إلا نادراً، أما كبار السن والمصابين بأمراض مزمنة كالسكري وأمراض القلب، وأنواع السرطانات، وهنا توقف قليلاً، لكنه تابع قائلاً: فلضعف مناعتهم، هم أكثر تعرضاً للموت؛ لذا يجب أن ننتبه لهم ونوليهم رعاية خاصة. ولكن يجب علينا أن لا نخشاه، وأن نعرف كيف نتعامل معه، ونتصرف في حالة الإصابة، على المستوى الفردي، والمجتمعي كذلك الحكومي، فما حدث ويحدث هو نتيجة الإرباك ليس إلا.

– إلا أن هناك مسألة تغافل عنها الكثيرون، ألا وهي أننا جميعاً كبني البشر، يجب أن نعلن الحرب على الفيروس وليس على المصابين به؛ لأنه يجمعنا المصير المشترك.

– ونستطيع تفاديه، بتجنب الأماكن المزدحمة، الإبتعاد عن المصابين المحتملين، ووضعهم في الحجر الصحي، غسل الأيدي

بإستمرار بالمنظفات الفعالة، لبس الكمامات مع معرفة كيفية لبسها، كذلك القفازات الخاصة.

واستغل وان الفرصة للتخلص من أسئلة ملاك غير المتعلقة باختصاصه الأكاديمي، وتحول إلى الجانب النفسي والبعد المتفائل، وكأنه يلقي خطاب انتصار العالم على فايروس كورونا المستجد الذي يدعى بـ Covid 19.

ينظر الناس إلى فايروس كورونا المستجد وكأنه وباء، أو بلاء، أو عقوبة إلهية، أو مؤامرة دولة على أخرى. المشكلة ليست في ذلك بل المشكلة أنهم لا يعرفون إن كورونا وغيرها من الأمراض والأوبئة والآفات، وحتى المشاكل والنزاعات عبارة عن تحذيرات كونية على شكل إشارات لتنبيه البشر أن هناك خللاً ما، يجب عليهم معرفة كيفية التعامل معه، وأن هناك سنناً، وقوانين وأنظمة، وعادات وأعرافاً وتقاليداً، يجب أن تتغير وتحل محلها أخرى أكثر تطوراً، أو أن التوازن القائم بين البشر أنفسهم وبينهم وبين الطبيعة قد اختل، فتتخذ إجراءات من شأنها إعادة التوازن .

– ما نسبة فيتامين دي/DV لديك؟ فسمعت من أخصائيين إن الفحوصات أجريت لضحايا المرض، وكان هناك عامل مشترك بينهم وهو نقص هذا الفيتامين، ولم ينتظر جوابها، بل ذهب إلى خزانة خاصة بالأدوية والمكملات الغذائية، وجلب أقراصاً وبعض المكملات وقدم لها.

– ستفيدك هذه .

في البداية رفضت ملاك أخذها، إلا أنها سمعت رسالة صوتية وصلتها من إحدى صديقاتها بصوت طبيب، ينصح بضرورة التوازن الغذائي، وخاصة الأغذية التي تحتوي على فيتامين دي. مما دفع ملاك إلى الموافقة على عرض وان، ومسكت بجميع العلب بيديها المرتجفتين، وهو دليل على حجم الخوف جرّاء هول ما سيحدث.

لم تكن ملاك مخطئة، إذ جاءها فيديو عن طريق الماسنجر من إحدى صديقاتها، يظهر حجم الكارثة في بعض الدول وسقوط المرضى في الشوارع، ووجود كثير من جثث الضحايا ملقاة على الأرصفة، وجثث من ماتوا في المستشفيات، وإجراءات دفنها في مقابر غير عادية (مقابر أعمق من دون أن تشير إلى أسماء المتوفين)، وبغياب تام من قبل ذويهم ودون إقامة مراسيم العزاء.

حالة من الرعب انتاب المواطنين، مع إجراءات ضبط النفس الفردية والجماعية، على المستوى الرسمي وغير الرسمي. أناس لجأوا للدعاء والصلاة وإقامة مجالس الذكر، باختلاف أديانهم ومعتقداتهم ومذاهبهم وفرقهم، متضرعين لله ينجيهم من هذا البلاء والكرب العظيم، آخرون ينشرون النصائح والتعليمات على مواقع التواصل الإجتماعي، قليل منهم مارسوا الإسترخاء لإراحة الذات وزيادة جرعات الأمل.

وآخرون استهزؤوا بالفريقين، وقالوا لهم تضرعتم إلى الله لأن فايروساً صغيراً هاجمنا، لكن يبدو أنه لم يستجب لدعائكم،

فإما أنه غير موجود أصلاً، أو لا يستطيع تحريك ساكن، وبالتالي لن يخلصكم، أو أنه لم يستجب لدعواتكم، ولا يهمه معاناتكم، أو لا يشعر بكم أصلاً.

ومن كل ذلك لاحظ وان أن هناك تغييراً في معاملة الإنسان وعلاقاته، واستفسر عنها كثيراً من رجال الدين، خبراء علم الإجتماع وعلم النفس دون أية إجابة مقنعة.

فاختلال هذه المعادلة ينذر بنهاية العالم وفق معظم النظريات الدينية، وكذلك وفق النظرية الماركسية التي تذهب إلى أن المجتمعات البشرية تطورت من المشاعية الفوضوية، إلى المرحلة الإقطاعية ومن ثم البرجوازية وستصل إلى مرحلة المشاعية المنتظمة التي تسمى بالإشتراكية، أي يشترك الجميع في الإنتاج وفق إمكانياتهم وطاقاتهم، ويأخذون ما يكفي لحاجتهم، وهي المرحلة التي سميت بنهاية التاريخ، وتقابل يوم القيامة وفق النظرية الدينية. فشعر وان بنعاس شديد، وأراد أخذ قسط من النوم.

في صباح اليوم التالي، تأهب ليوم شاق، إذ كانوا يعملون ليل نهار، جنباً إلى جنب مع الجهات الرسمية، لتوعية الناس، فأنشأوا فرقاً للمتطوعين المتدربين بشكل جيد، في مراقبة تحركات الناس وتقديم يد العون لهم، ومراقبة الأسواق لتوفير الإحتياجات اليومية ضماناً لعدم ارتفاع الأسعار واحتكار البضائع من قبل التجار الجشعين، واستغلال الناس.

وفي نهاية يوم شاقٍ، رأى وان شخصاً، برفقة امرأة يمسكان

بيدي رجل طاعن في السن، يحاولان إدخاله سيارة إسعاف بمساعدة أحد المسعفين، فعرف أنه كريم، واستنتج أنه وزوجته يأخذان والده الى المستشفى، ولاحظ مدى اهتمام المرأة بالرجل المريض، ولاحظ أيضاً مدى قلقها، وخوفها عليه... فقال في نفسه: كريم، يبدو أنك أحسنت الإختيار، وأن حبكما قد انتصر، وأن والدك فخور بك لحسن اختيارك، وأدرك أن هناك إشارات تأتينا لتلفت أنظارنا إلى أشخاص أو أشياء ذات قيمة لا تقدر بثمن بين أيدينا، ولابد أن ننتبه لها قبل أن نفقدها.

وفي اليوم التالي استأذن وان من فريقه، إذ خطر له فكرة الخروج من المنزل مع عائلته، ولكن إلى أين؟، الوديان المجاورة أم القرى القريبة؟، أم إلى السد في شمال المدينة؟، أم يصعد الجبل في جنوبها؟، فوقع اختياره على الجبل، ليشاهد حركة الناس ونشاط المدينة.

وكان هناك شيء آخر لم يفهمه الناس، ولم يبلغوا الحكومة، وهو دخول خفافيش إلى البيوت نهاراً، فالمعروف أنها لا تطير إلا في الليل ولا تظهر في النهار إلا نادراً، وتناقل كثير منهم هذه الأحداث كمجرد حدث يومي.

فلم يعرف بعد إن كانت موبوءة أم لا، مصابة أم سليمة، ظاهرة اعتيادية، أم رد فعل الطبيعة القاسي على تصرفات الإنسان الأنانية معها؟ ولكن في ذلك الوقت كان لابد من تبليغ السلطات، لدراسة الوضع وإجراء اللازم، فأحياناً خطأ صغير، أو أهمال أو تقصير غير متعمد، قد يؤدي إلى كارثة كبيرة.

كذلك أدرك بعض الناس خطأها، حينما استهترت بالتعليمات والإجراءات الرسمية، فعدم امتثال عدد قليل منهم قد سبب بكارثة كبيرة، بعد ما أقامت مجالس التعازي، و التجمعات غير الضرورية، وخرقت بذلك تعليمات الحجر الصحي، و نشر أخبارٍ كاذبة، وغيرها .

ثم راودته فكرة، أن وجوده في قمة الجبل المطل على المدينة ستجعل الأوضاع وحركة الناس فيها، بكامل ضوضائها وصخبها تنكشف أمامه، فسيعرف باي اتجاه تسير الاوضاع، هل تحسنت أم ذهبت للأسوء؟، فإذا كانت الشوارع خالية من الناس وهادئة فهذا دليل أنها تسير نحو الأسوء، والوباء مازال يحكم سيطرته عليها، والأيام القادمة ربما تكون أسوء. والموت، وهنا تذكر مصطلح الموت الأسود الذي أطلق على الطاعون في التاريخ، وحينئذ سيعرف الناس ما هو فايروس كورونا الذي كانون يستهزئون به، وأنه لم يكن من سبيل لتجنبه رغم الإجراءات المشددة، ورغم الجهود الكبيرة التي بذلت عالمياً ومحالياً، رسمياً وشعبياً دون جدوى لتجنبه وقهره. وسيكون مجرد حدث من أحداث التاريخ ويدون في بطون الكتب وتقصه الأجيال القادمة لأبنائها، والأمر برمته سيغدو مجرد أرقام على صفحات شبكات التواصل الاجتماعي ومواقع الإنترنيت التي ستظهر بخط أبيض ذي خلفية زرقاء فاتحة على مربع زجاجي غير مرئي يتلاشى ويظهر مرة أخرى أمام الأعين بإيعاز من خلايا دماغ الشخص المستخدم.

بمجرد وصول وان وعائلته إلى قمة الجبل، على طريق معبدٍ وعرٍ صعوداً ونزولاً، هبت على وجهه نسائم تدفئها أشعة الشمس المتراقصة في كبد السماء المغبر بعض الشيء، وتبدد تلك الأفكار من رأسه، وسط ذهولٍ بوجود حركة كثيفة في المدينة وصخب الناس والسيارات المارة في شوارع المدينة.

فانتابه فرح شديد، وتحول إنزعاجه المزمن من رؤية الدخان المتصاعد من المعامل الموجودة غرب المدينة ويقال أنها تسبب أنواعاً من السرطانات إلى شيء من التفاؤل بعودة الحياة إلى سابق عهدها في المدينة. ومن شدة فرحه لم يتمالك نفسه، فبدأ بسيل من الاتصالات مبتدءاً بصديقه شاكر يستفسر منه عن آخر الأخبار.

- ألم تسمع أن مضاد الفايروس قد وصل، وأن هناك حالات حرجة تماثلت للشفاء، وغادر كثير من المصابين الحجر الصحي، وبدأ الناس بالخروج من بيوتهم، متوجهين إلى الأسواق، وفتحت المحال التجارية بعد أن قامت الحكومة بتعقيمها. ولي خبر آخر سار لك يا صديقي، سنرزق قريباً ببنت بعد عشرين سنة من الإنتظار.

لم يتمالك نفسه فانهار فرحاً، وكاد أن يقع أرضاً، لولا أن زوجته ساندته، وساعدته في الجلوس على الكرسي الخشبي غير المريح، الكرسي ذاته الذي جلس عليه وهو محطم الأعصاب، منتظراً بفارغ الصبر تحرك قرص الشمس الحارقة نحو المغيب كي يحل موعده مع ملاك. ولم يستطع أن يمسك دموعه الحارة،

فتذكر ملاك واتصل بها، التي سرعان ما فتحت سماعة هاتفها وزفت خبر الإنفراج له دون إنتظار.

سيل من الإتصالات ورسائل المباركة وصلته من أصدقائه وأقربائه، حتى من أناس غير معروفين، فبات الناس يتبادلون رسائل التهنئة بالخروج من النفق المظلم، بإنقضاء الأيام الصعبة، الأيام السوداء التي تمر ككابوس على العالم أجمع وعلى مدينتهم.

نزل وان وعائلته وسط زحام شديد للسيارات التي تصعد الجبل، وما أن وصل إلى البيت، طلب منه أولاده الإلتحاق بجموع الناس المتوجهين إلى ساحات المدينة للاحتفال بالنصر العظيم. فلبى طلبهم بعد امتناع شديد، إلا أن إصرارهم جعله يوافق، وبوصولهم إلى المكان المحدد شعر وان بتعب شديد، ضيق في التنفس، صداع في رأس، شعور بالدوار، وإرتفاع ملحوظ لدرجات حرارة الجسم، إلا أنه حاول إخفاء ذلك، وطلب من عائلته البقاء في الحفل والإستمتاع بأجوائها، ولكن عليه الجلوس في مكان مريح قريب من النافورة؛ لأنه متعب جداً وعليه أن يجري بعض الإتصالات.

عشر دقائق ورأى نوراً، فناداه...

- نور، اليوم جاء دوري لأزعجك، أشعر بتعب شديد، هلا ساعدتني للذهاب إلى المستشفى؟

- أقوى الاشخاص في العالم ليسوا رافعي الاثقال، أو ملتهموا أكبر عدد من الفلافل الحارة، أو متسلقوا الجبال بل الذين يستطيعون الوقوف لوحدهم.

– يبدو أنني لست منهم.

وأغمي عليه، ولم يدرك ما يجري حوله، إذ فزع الناس بإنتشار خبر وقوع شخصٍ على الأرض، وكان قبل ذلك يعطس كثيراً، وحرارته مرتفعة إضافة إلى عسر في التنفس، وقد تزامن ذلك مع إطلاق نار عشوائي من قبل أناس لايعرفون المسؤولية، فهربوا هلعاً من موقع الحادث، فوقعت حوادث الدهس والإصابة بالرصاص الحي المتساقط عليهم، فخلفت بعض الإصابات خصوصاً بين الأطفال، حالة جزع لا عقلانية، أدت إلى كارثة أكبر.

فتح عينيه فإذا هو بالمستشفى، عرف ذلك من مظهره وصوت أجهزة قياس القلب. ونور جالسٌ إلى جانبه. – دكتور الحمد لله النتائج الأولية للفحوصات أظهرت أنك سليم، ولم تكن مصاباً بالكورونا.

تمتم وان بكلمات غير مفهومة،

– لكنني مصاب بسرطان الحنجرة، الأخطر من الكورونا ... لذا لم يفهمها نور.

– مازلت متعباً استرح قليلاً، إتصلت بعائلتك وهم في طريقهم إلى المستشفى، تأخروا بسبب الازدحام، وعدم وجود سيارات الإجرة.

إلا أن إختفاء نور المفاجئ وتأخر حضور عائلته وعدم إتصالهم به، إضافة إلى حركة الكوادر الصحية في المستشفى، مشهد درامي غير مطمئن. ثم جاء شخصان معهما جهاز فحص الحرارة، ووضعوا على كتفه شريط كتب عليه الرقم (1256). فخمّن أنه الشخص رقم (1256) الذي تم فحصه.

– ستبقى في المستشفى كإجراء إحترازي ساعة أخرى فقط، لنتأكد من الفحوصات المختبرية.

– أنا الشخص رقم (1256)، فكم من أشخاص قد تم فحصهم أو سيخضعون للفحص من بعدي؟، ومن ثم فإننا وكما قلت سنصبح مجرد أرقام ضمن المعادلات المختلة التي أقامها الإنسان بنفسه، وستحكمنا آلات خرقاء لتتعامل مع هذه الأرقام الحمقاء، متأكد أن الحرب المدمرة القادمة ستكون حرب الذكاء الاصطناعي والإنسان الآلي.

إتصل بعائلته، دون جدوى، لكنه علم أنهم أيضاً في الحجر الوقائي في إحدى المراكز الصحية، ولا يسمح لأحد أن يغادر غرفته حتى ظهور النتائج المختبرية، مرت تلك الساعة ككابوس مرعب، ليس بالنسبة له فقط، بل لآلاف من الناس في المدينة.

فبعضٌ من الموجودين في الساحة التي كان من المقرر أن يقام فيها الحفل الشعبي، بمناسبة إنتهاء الأزمة والتخلص من الوباء المخيف كان مصاباً بالفايروس دون أن يعلموا، ووقع شخصٌ منهم بين الجماهير المتجمعة، ثم ظهرت حالات أخرى مماثلة، فتمت محاصرة جميع الموجودين، ونقلوا بسيارات الإسعاف إلى أربع مستشفيات أخليت في الحال، وتم إجراء فحوصات لهم. وأُبلغ وان وجميع من في الحجر الصحي الإحترازي، من قبل الكادر الصحي بالمعلومات تلك، ومعلومات أخرى، إضافة إلى الإرشادات الصحية.

مرت الدقائق ثقيلة بشق الأنفس، وتم إبلاغه وكثير من كان

في الحجر الصحي، بأن نتائجهم كانت سليمة فسمح لهم بمغادرة مراكز الحجر، وسط إجراءات صحية مشددة جداً، وكانت سيارات الإسعاف تنتظرهم خارج المراكز لتوصلهم إلى منازلهم، وتم إبلاغهم بعدم الخروج مهما كانت الظروف، وأن الحكومة ستقوم بإيصال المستلزمات الطبية والمواد الغذائية عن طريق فرق خاصة.

وحالما وصل إلى المنزل وجد عائلته بإنتظاره، ففرحوا كثيراً، وإتصلوا بمعارفهم وأقربائهم، فكانت نتائج أغلبهم سلبية، عدا بعضاً منهم، إلا أن الأخبار كانت غير سارة بتاتاً، فظهرت إحصائيات وأرقام مخيفة جداً، آلاف من الحالات المشتبه بها، مئات ممن وضعوا في الحجر الصحي والحجر الوقائي وتحت الرعاية المشددة، عشرات الحالات المؤكدة، الحاملة للفايروس، وأصيب بعض الناس بسبب الاطلاقات النارية.

حقاً إنه وضع مزرٍ، فبات الناس في خوف وهلع، وكانت الضحايا في ازدياد مستمر وكأنها حبات زيتون ذابلة، إذ تشير الإحصائيات التي تنشر يومياً من قبل وزارة الصحة، إلى تزايد أعداد الموتى، والمصابين، وأزمة المراكز المخصصة للحجر، والكادر الطبي، ونقص شديد في الأدوية والأجهزه، والإجراءات الحكومية التى تزداد وتيرة شدتها يوماً بعد يوم؛ لذا بادرت الحكومة بإغلاق مواقع التواصل الاجتماعي.

فكانت الإجراءات الحكومية في تصاعد مستمر، وتم فصل المحلات السكنية عن بعضها البعض، وحتى العمارات السكنية

أيضاً، ولم يكن يسمح للناس بالخروج من منازلهم إلا للضرورة القصوى، وعن طريق الفرق الخاصة المزودة بسيارات الإسعاف والأجهزة الطبية، وتحت إجراءات غاية في الشدة.

فكان المشهد أشبه إلى حد كبير، بأحداث طاعون لندن، إذ قامت السلطات العامة بإغلاق أبواب منازل من أصيب بالطاعون، وحبسه في بيته مع أفراد إسرته الأصحاء ووضع شارة صليب أحمر كدليل على أن هذا المنزل موبوء، مع وضع حارس أمام باب المنزل لمنع ساكنيه من الخروج.

وكان من الأخبار السيئة، إصابة بعض الكوادر الصحية بالفايروس المخيف. والأغرب من كل ذلك هو عدم إستجابة بعض المصابين، مهما كانت حالتهم للمضاد أو المصل الذي وصل إلى المستشفيات والمراكز الصحية.

إلا أن وكالة الصحة العالمية أعلنت عن إنتشار فايروس آخر أخطر من كورونا فايروس المعروف، فتم فك رموز ذلك اللغز، دون التعرف على الفايروس الجديد، والذي سمي بـ Covid 020 الذي ينتقل عن طريق الحشرات والحيوانات، كذلك قدرته على التنقل بين الحيوانات، وإمكانية إنتقال عدواه من الحيوانات إلى الإنسان وبالعكس، إضافة إلى الطرق الأخرى التي كان الفايروس Covid 19 ينتقل بها. فيبدو أن الفايروس قد تأقلم مع الظروف وطور نفسه.

وقد تناقل الناس– رغم محدوديتها –، عن طريق بعض مواقع الأنترنيت العالمية أخباراً مفزعةً جداً، استخلصت من

مقالات نشرت عن طريق بعض الوكالات العالمية، بأنه من الممكن أن يتحول جثث ضحايا الفايروس الجديد بطريقة ما إلى كائنات حية (الزومبي)، وقد أثار ذلك ذعراً بين الناس حتى في منازلهم؛ فأقل الأصوات تسبب خوفاً لهم، ومات بعض الناس خوفاً، فأحرقت جثثهم أيضاً دون التأكد من سبب الوفاة، في محارق بنيت لهذا الغرض.

وكان وان على إتصال بأصدقائه وأقربائه، وبصديقته ملاك، التي قالت ذات مرة:

- وان إن تحولت إلى زومبي، وهاجمتك، هل ستقتلني؟.

- إن بقى غيري من الناس الطبيعيين، فسأقتل الزومبي الذي يقبع في جسدك المتحول، حفاظاً على الجنس البشري، أما إن كنت أنا آخر إنسان طبيعي على الأرض، فسأقتلك ولكن بعد أن تحولينني إلى زومبي، حينذاك سأقتل نفسي أيضاً، فلا أريد أن أكون «فرانكنشتاين» بطل ماري شيلي، أموت ويبقى المسخ حراً طليقاً، حتى وإن ندم، فما زال مسخاً أنانياً.

وقد إنتشرت رائحة إحراق جثث الضحايا في المدينة وكانت أشبه برائحة الموت، الموت المخيف، الموت الذي يخاف منه الموت نفسه. وكان الرعب القاتل هو العامل الآخر الذي يضعف الأمل بالحياة بل ويعدمه، فكان نداً للفايروس في الفتك بالناس فرادى وجماعات.

****

استقيظ الناس في صبيحة أحد الأيام، ولم يكونوا على علم أهو يوم السبت، أم الأحد، أم حتى يوم الخمس أو الثلاثاء، إلا أنهم استيقظوا على صوت عالٍ جداً، لم يعتدوا عليه، صوت صافرات الإنذار.

حيث صادف وان ذات مرة ليلى وليليان، وقد أصيبتا بالفايروس الخطير، لكنهما شفيتا تماما، وغادرتا المركز الصحي، ويعملان ضمن فريق تطوعي.

- وهل يجتمع الشمس والقمر؟!

- شكرا دكتور، لله في خلقه شؤون. وأبشرك بأنني تزوجت، وبقينا أنا وليليان أصدقاء كما في السابق، وقد خطبت ليليان أيضاً.

- من المبهج سماع ذلك، مبارك لكما، أمازلتما تخافان الموت؟

- لقد تعلمنا أن الخوف لا يمنع الموت، لكنه يمنع الحياة.

وشاهد مرة نوراً في التلفاز وهو يقدم المساعدات لذوي الضحايا، وعلم فيما بعد أن زوجته قد ماتت وهي حاملة في شهرها الثامن، فتذكر قوله: إنكما ستدفعان الثمن غالياً، ولكن كيف؟ وأين؟ ومتى؟ لا أعلم؟ وأرجو أن تكونا مستعدين لذلك، وها قد دفعا الثمن، ثمناً باهظاً جداً. فمجرد التفكير فيه مؤلم.

كما شاهد أيضاً وخلال عمله الإشراف على إحدى الفرق، سوزان، وقد عادت من المانيا إلى الإقليم، لتكون قريبة من أهلها الذين أصيبوا بالمرض، وانتقلت العدوى إليها من زوجها الذي توفي إثر ذلك حيث كان طبيباً يعالج المرضى، وبقيت هي على

قيد الحياة ولكنها كانت في حالة مزرية جداً؛ لأنها سبق وأصيبت بمرض عضال لم تشفَ منه بعد عندما أصيبت بفايروس Covid 020.

فخابر شاكر، وأخبرها قصة سوزان، لكنه سرعان ما شعر بندم كبير عندما صمت شاكر لوقت غير قليل، ثم أنشد قائلاً:

أيتها الشقية الأنانية

أحببتك كثيراً

لسنين ماضية

وأعشقك في اللحظة الآنية

وسأبقى مغرماً بك للسنوات الآتية

حتى وإن كنت أنانية

أيتها الشقية

سأقول أن الظروف أعاقتها

وهي الضحية

فزاد ذلك متاعب وان أكثر، وشعر بأنه وللمرة الثانية يفتح جروح شاكر، التي لم تندمل بعد، فبادر بمعاقبة نفسه، قبل أن يأخذ قسطاً من الراحة، واصل العمل لساعات طوال، إلى أن انحدر قرص الشمس نحو قمة الجبل.

يوم شاق آخر، لم يمر بسهولة، كانت الساعة تشير إلى الرابعة والربع، فذكرته بالتوقيت الذي التقى فيه ملاك، وتحدثا طويلاً،

فانهمرت الدموع من عينيه، وما أن رآه زميله، حاول تهدئة البركان الثائر فيه.

- أتبكي يا وان، ونحن تعلمنا منك قوة الشخصية؟

- بكاء الرجل ليس ضعفاً، ومن ثم أليس للرجل قلب أيضاً؟.

- وهل نحن في المحاضرة؟.

- دعني أطلعك على ما يجول في خاطري الآن: جرّاء هذا الوباء ستتوقف الحياة تماماً، الحياة المادية، وتتعطل جميع الأجهزة، وتبقى الطبيعة متحكمة بكل شئ لبعض الوقت فتتنهد بحرية، وبما أن الإنسان جزء من الطبيعة، فسيدخل أيضاً في حمايتها، فيتم إعادة برمجته (تربيته)، إلا أنني متأكد أنه سيعيد ضبط إعداداته، ويعيد برمجة نفسه، ويخالف تعليمات الطبيعة مرة أخرى، كما خالف أبوه آدم تعليمات الله في عدم الإقتراب من شجرة التفاح، رغم إباحة كل شيء عدا تلك الشجرة.

فضحكا قليلاً، وكانا مستعدان بل في غاية الإحتياج لجرعة كبيرة من الضحك، لولا صياح شخص يتكلم بالإنكليزية وقليل من الكوردية شبه المفهومة.

فارتعد وان وقال إنه صوت جون، إنها نبرة صوته، فقام ونفض الغبار الرمادي من بنطاله الزيتوني، فوجد جون منتصباً أمامه.

- أهذا أنت يا وان، وان ساعدني في إخراجي من هنا...

كان في حالة لا يحسد عليها، بل يرثى لها ... مظهر مزرٍ جداً، وجه حزين، شعرٌ طويل، عينان منكسرتان، لحية طويلة غير مرتبة، ملابس مغبرة، بدا وكأنه ثمل، إلا أنه كان مدركاً ما يحصل حوله، سأبقى هنا ولن يتم إجلائي إن لم تساعدني... وكان جون أمريكي تعرف عليه وان في نيويورك أثناء مشاركته في أحد البرامج التدريبية هناك، وجاء إلى العراق.

- ألم تتصل بالسفارة؟

- نعم إتصلت، وحددوا لي موعداً، إلا أنني كنت ثملاً، وفقدت حقيبتي، وفيها حاسوبي الشخصي وموبايلي، لا بد أنهم يتصلون بي الآن.

- حسناً، خذ نفساً عميقاً، سنحاول حل مشكلتك يا صديقي، من الجيد أنك وجدتني، أعرفك، فإنك تعمل بلا بوصلة ولا مقصد، ولا رؤية، ولا طريق واضح في حياتك.

فجلس على الكرسي الحديدي ودفن رأسه بين يديه، ثم تململ في كرسيه، وبدأ ينقر الأرض بعصى كانت مرمية بالقرب منه بعصبية بالغة، ويضرب الأرض برجله اليمنى، تعبيراً عن غضبه من نفسه.

- خذ هاتفي اتصل بالسفارة، فقد تجد رداً منهم، وإلا علينا إيجاد طريقة أخرى، ولكن قد تكون الفرصة فاتتك؟ فالرحلات الجوية ألغيت وتوقفت المطارات عن العمل وإغلقت الحدود.

خفق قلبه في صدره بقوة، كادت أن تسمع دقاته، ويخرج زمام أمر قلبه من يده، فانتفض واتنصب قائماً.

- وكيف تكون الفرص قد فاتتني؟ فإنني مواطن أمريكي، وسيتم إجلائي مهما كانت الأسباب... لا شكَّ إنك تمزح معي، أهذا وقت المزاح يا صديقي؟!.

- إن أصبت بالفايروس فستدخل الحجر الصحي، ولن تسمح السلطات بمغادرتك، إلا بتنسيق مع السفارة الامريكية. بعد التأكد من إستجابتك للعلاج. إنها مسألة إنسانية وليست عنصرية، ولستَ أول حالة يتم التعامل معها، هناك الكثيرون.

أصرَّ جون، وألح عليه كثيراً، وكان في غاية الإضطراب، يتأتأ، ويتعلثم في كلامه، وينطق كلمات غير مفهومة.

- صدقني لست مصابا بالكوفيد، أعرف العلامات، فلا حمى، ولا سعال.

- صديقي العزيز، أرجو ومن كل قلبي أن تكون غير مصاب، وأن يتم إجلاؤك، وتصل إلى بلدك، وتعود إلى زوجتك ووالدتك، وأن يتم لم الشمل مجدداً بين كل الأحبة، والأصدقاء، ولكننا في حرب شرسة، مع عدو فتاك قذر، غير مرئي، لا نراه ولا نعرف متي؟ أين؟، وكيف سيهاجمنا؟

- نعم صحيح يا صديقي، ولكن يبدو أنك تتكلم بلغة العقل، ويجب أن تعرف أن هناك الكثير من الحالات، التي يجب أن تراها بعين العاطفة، زوجتي تنتظرني في الجانب الآخر من العالم، وهي قلقة عليَّ، وقلب أمي ينفطر، وأنت هنا ترسلني إلى المركز الصحي ليتم حجري هناك، أليس هناك من وسيلة أخرى للخروج من هذا المأزق المقيت؟.

– ما أقوله، وما نقوم به، أولاً لمصلحتك، ومن ثم لمصلحة زوجتك، ووالدتك ومواطنيك، ألا تخاف عليهم؟.

– ما زلت تنطق بلغة العقل دون أدنى إعتبار للعاطفة. قالها جون متهكماً وينظر إلى نافورة الماء وسط الساحة التي جفت هي الأخرى.

– بل أنطق بلغة المنطق، ففي ظروف كهذه يجب أن نكون صارمين، يا أخي نحن أيضاً تعبنا، لو التزم كل منا بالتعليمات واتّبع الإجراءات منذ البداية لما حصل ما حصل، لو علمت دول العالم كيفية التصرف مع هذا الفايروس اللعين لما حصل ما حصل؛ لذا تخل عن عاطفتك المجردة من العقل، وستصل إلى بلدك سالماً. أعدك، ألا تعرفني؟ ثم أعقب: كورونا فايروس ليس له أرجل، ولكنه يمشي بأرجل الحمقى... في لحظة ما سترى المنطق يقول للعاطفة أرأيت؟!، كنت على حق.

– نعم أعرفك، ولكن يجب أن تعلم أن جميع مؤسسات الدولة تعمل لخدمة الفرد، ومصلحة الفرد يجب أن تغلب على أية مصلحة أخرى، الدولة وجدت لرفاهية المواطنين، أي الفرد، والمجتمع وجد لمراعاة مصلحته. قالها وكأنه لم يسمع الجملة الأخيرة أو تظاهر بعدم سماعها.

– ولكن الفرد جزء من المجتمع، ويجب أن نوازن بين الفرد والمجتمع، وفي حال أصبح الفرد خطراً على المجتمع فيجب إتخاذ الإجراءات اللازمة، وإن إمتنع، فسيتعرض للعقاب حسب نظرية رجحان الحق، وحماية الآخرين، بل ولحماية نفسه قبل

الجميع. هل فهمت القضية يا عزيزي؟، هذه هي لغة المنطق التي أتكلم بها، ألا تفكر؟، أم أصبحت أنانياً لهذه الدرجة؟!، تأخذ مصلحتك الشخصية فقط بنظر الإعتبار، ترى نفسك فقط دون الآخرين؟.

ألا تعرف مربع الحياة (الصحة، الثروة، الحب، التعبير الأمثل عن الذات)؟ فإن كنت في صحة جيدة، ولكن كل من حولك يعاني من أمراض فلا معنى لصحتك؛ لأنك ستفقد الأمل، وسيصيبك المرض أيضاً ذات يوم، وحتى إن امتلكت ثروة الدنيا كلها فلن يفيدك في شيء حينذاك، وإن لم تكن محباً لذاتك ولغيرك وتستطيع أن تعبر عن مشاعر الحب، فما قيمتك كإنسان. وأما التعبير الأمثل عن الذات، فهو وحده فلسفة قائمة بذاتها، فإن لم تستطع أن تعبر عن ذاتك لغيرك، الذي هو البعد الآخر لنفسك، فلمن ستعبر عن ذاتك؟، ألذاتك؟، أم لنفسك؟، وكأنك تلعب لعبة ثنائية لوحدك، فتمثل دورك ودور المنافس، هل جربت ذلك؟، حتماً أنها مملة، لقد جربتها مرات عديدة، إنها الغباء بذاته، حياة من دون إثارة، بل قمة الملل. ثم قال: لمن أشرح كل هذا؟

- آه لو دخلت رأسي؟ قالها جون بنبرة حازمة.

ضحك وان ضحكة أشعر الجميع بالاستغراب،

- وهل سأجد غير زجاجات الخمر، والشاشات الزرقاء، ومحفظتك العتيقة التي تخاف حتى من أصابعك.

استوعب جون المسألة، إنها قضية إنسانية قبل أن تكون قومية أو عنصرية، فمد يده ببطئ وخمول ليأخذ هاتف وان،

وفتح بريده الإلكتروني، فوجد أيميلاً يبلغه أن يكون في مركز سروش الصحي في الساعة السادس مساءاً، لإجراء الفحوصات اللازمة من قبل فريق طبي، ومن ثم سيتم إتخاذ اللازم. فهناك قوانين وتعليمات، وهناك إجراءات يجب إتباعها وبدقة، وهناك وباء عالمي يجب التعامل معه وبحزم.

ثم إتصل، بالمركز، طالباً سيارة إسعاف، وما هي إلا دقائق معدودات حتى وصلت السيارة.

يبدو أن جون قد فهم مغزى كلامه، وحالما حضرت السيارة، شكر وان.

– تصرفت بحكمة، لن أنسى جميلك أبداً، وصعد السيارة. وما أن أوشك المسعف على إغلاق الأبواب الخلفية، حتى قفز جون وكأنه يهرب من شئ مخيف.

– وان ما رأيك أن أتطوع في فرقة خاصة هنا، فقد نويت أن أقوم بذلك في بلدي، ولكن العالم كله أصبح وطناً لي؛ لأن الفايروس لا يفرق بين الأوطان، ويفتك بنا جميعاً دون إستثناء ودون أي إعتبار للحدود. وأعتقد أن كثيراً من الناس سيظلوا دون وطن، لأن دولاً كثيرة إنهارت، وستعقبها أخرى، وها هو الإتحاد الأوربي يظهر هشاشة مؤسساته، وتتعامل كل دولة وفق قوانينها الخاصة، ووفق ما تتطلب مصلحتها، ولا تعنيها غيرها من دول الإتحاد، وأغلقت حدودها لأول مرة منذ تأسيسه، أعتقد أننا جميعاً سنكون مواطنو اليوتوبيا، مواطنين لا ينتمون لمكان معين.

- أمر غريب، قبل دقائق كنت تتوسل كي يتم إجلاؤك من هنا، وكنت خائفاً على نفسك، والآن تعلن الإنضمام إلينا لمحاربة الوباء ومواجهته؟، وكإنك ثعبان إنسلخ عن جلده القديم.

- إنها الإنسانية يا صديقي العزيز، فما الفرق بين أن أموت هنا أو هناك، أن أساعد الناس هنا أم هناك؟ سأرسل إيميلاً للسفارة وأبلغهم بأنني غيرت رأيي، ولا حاجة لإرسال فريق الإجلاء، سأذهب إلى المركز الصحي لإجراء اللازم، وسأتصل بك من هاتف أحدهم.

- أتذكر كم كنت مبادراً لعمل فرقٍ تطوعية وتوعوية هنا، قبل سنوات، هل نسيت ذلك؟ كنت قدوةً ومحفزاً للكثيرين.

- حقاً؟!

- مؤسفٌ أن تكون ذكرياتنا موضع شك.

- أراك لاحقاً صديقي.

- بعد إجراء الفحوصات اللازمة، وفي حال تبينت سلامتك، أطلب منهم إستمارة التطوع، ووفق بياناتها سيتم إدخالك دورة تدريبية قصيرة، خاصة بالمجال الذي إخترت التطوع فيه. فهناك الكثير من الأجانب، الصينيين، البنكلادشيين، الفليبينيين الأمريكيين، الروس، وغيرهم. سأراك في خندق المواجهة يا صديقي العزيز.

وقبل أن يصعد جون سيارة الإسعاف قال: أسمعت برواية عيون الظلام، لقد صدرت قبل نحو أربعين سنة وهي تتحدث عن فايروس إسمه ووهان-400؟

– نعم سمعت بها، لكن النسخة الأولى التي صدرت عام 1981 وكان إسم الفايروس (جوركي-400)، إلا أن إسمه تحول بفعل فاعل في الطبعة اللاحقة أي سنة 2008 إلى (ووهان-400). ولا يعرف بعد هل أنه من صنعُ دولةٍ ما، وتسرب من مختبراتها إلى ووهان أم سُرِّبَ عمداً، أم أنه فايروس طبيعي ونشغل أنفسنا بنظرية المؤامرة، التي تعتبر من الثيمات الممتعة لنا أولاً، وثانياً، نعفي أنفسنا من المسؤولية التي نلقيها على الطرف الآخر، أو حتى لا نكلف أنفسنا بتحديد هوية الفاعل فنقول أنه من فعل فاعل.

قال جون وهو يحك رأسه: قد تكون صائباً، فأجوبتك دائماً مقنعة، ورفع حاجبيه قائلاً: هل أنت قديس؟

– لست قديساً، إذا كانت القداسة ليس سوى مجموعة من الطقوس، لا يؤمن بها حتى الموصوفون بها. ولكن إذا كنت تقصد الطيب، فأقول لك: أفضل طريقة لحياة طيبة، هي امتلاك قلبٍ طيبٍ وتصعد السيارة.

تجمعت الفرقة بكامل أفرادها في تلك اللحظات، فقال أحدهم:

– دكتور، إن لم تستطع الدول المتقدمة أن تفعل الكثير لشعوبها، التي تأن تحت وطئة هذا الكابوس المرعب، فما عسانا أن نفعل؟، وكأنه فقد الأمل، فصمت.

– حتى المقارنة فنحن لا نحسنها، أعزائي لا تقارنوا إلا بين شيئين متماثلين، فإننا لا نتماثل مع الدول الغربية المتقدمة،

صحيح أن لديهم نظام صحي متطور جداً، ونحن ما زلنا نفتقر الثقة بالقطاع الصحي في كثير من الأحوال، نفتقر إلى الأدوية والمستلزمات الصحية، إلا أن هناك شيئاً لم تنتبهوا إليه، فعندما تستطيع السلطات العامة أن تبسط سلطتها على الدولة بكاملها، وأن توجه الشركات وأصحاب المصالح، والمجتمع المدني؛ لأن نظام دولنا هو نظام الدولة المتدخلة التي تساعدها القوانين والفلسفة العامة للمجتمع في ذلك، أما في الدول الغربية فأنظمتها تندرج تحت عنوان الدولة الحارسة، التي تهتم فقط بالدفاع والأمن العام والصحة العامة، والمصطلح الأخير أُزيل من القائمة في كثير من الدول، وسيطرت عليها الشركات التجارية، ولا تستطيع الحكومة فعل شئ سوى منحها رخص استعمال الأدوية فقط.

لذلك فحكومات الدول المتقدمة مكبلة بقيود قانونية ناعمة، لا تستطيع في كثير من الحالات تحريك ساكن، والأمر الآخر هو غلبة الفلسفة الليبرالية، والآن يحاول النيوليبراليون السيطرة على مفاصل الدولة، ونجحوا إلى حد بعيد، وهم يركزون جل إهتمامهم على الإقتصاد، وإدارة الأموال والشركات التجارية، ومن ثم الفرد وحقوقه وحرياته على حساب المجتمع، فالقيم المجتمعية ليست بذات الأهمية لو قرُنت بالفرد وحقوقه وحرياته، ولا تستطيع حكومات تلك الدول فعل شيء، إلا أن يصبح وباءً يهدد الفرد عن طريق المجتمع نفسه، ولاحظنا أن كثيراً من الدول الغربية لم تتخذ الإجراءات الجدية الفعالة، إلا بعدما شعرت أن الأمر سيخرج من سيطرتها، وخرج من نطاق الحالات الفردية، التي تعاملت معها بشكل خاص وأصبح وباءً

يهدد المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا ليس غايتهم الكبرى، بل حماية الإقتصاد من الإنهيار هي غايتهم.

– ولكن لو لم نتمكن من السيطرة على الفايروس القاتل، وأغلقت الدول حدودها وإنعزلت خوفاً من الموت المتنقل، سينقسم العالم إلى فئتين: فئة تمتلك أدوات المعرفة والمختبرات، وتعمل ليل نهار لإكتشاف العلاج، وفئة تنتظر مصيرها المحتوم.

– صدقت وأويد كل ما قلته، ولكن هناك شئ آخر وهو، أن لكل شئ نهايته، فأوروبا نفسها، تعرضت ولمرات كثيرة لأسوء أوبئة في التاريخ، ولم تكن حينئذ تملك من أداوت المعرفة والعلم، ولكنها تمكنت من الخروج من تلك الآزمات والآفات.

فقال شخص آخر، يبدو أنه كان يحاول بث روح الطمأنينة: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)، فرد عليه وان قائلاً: حتى هذه الآية القرآنية فسّروها بشكل غير صحيح، نعم لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ولكن بعد أن نحقق الأسباب، و(أن سعيه سوف يرى)، فإن فعل خيراً فسيرى الخير، وإن عمل شراً فسيلاقي الشر، والإنسان ليس مسيراً بالكامل، بل مخير في كثير من أمور حياته، ولولا هذا المبدأ، لما كان هناك من مسؤولية فردية (ولا تزروا وازرة وزر أخرى)، ولم يكن هناك من ثواب وعقاب، ولكان الله (حاشاه) مسؤولاً عن كل أعمالنا، ولم يكن هناك من داعي لوجود الجحيم. والأمر الآخر، فالممارسة التاريخية وفق هذا المفهوم الخاطئ أثبتت العكس؛ إذ يذكر علي الوردي في إحدى مؤلفاته ما ملخصه: عندما إنتشر وباء الكوليرا

في العراق في عهد العثمانيين: حجز اليهود أنفسهم في بيوتهم بأمر الحاخامات، فَسَلِموا، وعندما سأل المسلمون مرجعياتهم جاءهم الرد (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)، فمات كثيرٌ من الناس وأُبيدت قرى بالكامل.

صحيح إن مشيئة الله وراء كل شيء يحدث في العالم، فما من كائنٍ يتحرك من مكانه، إلا بأمر وعلم مسبق من الله تعالى، وما سيحدث بعد أن تحرك، وما خلّف وراءه، وما سيحدث جرّاء ذلك. وأما الفايروس نفسه أليس من مخلوقاته، خلقه لغاية ما، ومن ثم سينتهي وظيفته ويختفي بأمره. لذا يبدو إننا لا نعرف أن الله تعالى قد وضع القوانين الكبرى والقواعد الدقيقة، وترك لنا الإختيار والتتبع والسير، كي نكون نحن مسؤولين من آثارها وتبعاتها.

لاحظ رامان شخص ضمن الفريق يرتعد خوفاً، يحاول إخفاء خوفه، بتفقد مستلزماته في حقيبة الظهر، وتنظيف يديه بالمعقمات السائلة، ولبس الكمامة... ومن ثم مداعبة حبيبات مسبحته الفضية، ويستغفر، فسأله:

- لماذا التحقت بالفرقة.

- لكسر الروتين الممل... فنبرة كلامه تدل على الهلع وليس الخوف فقط... كأنه خوار بقرة في المرعى على وشك أن تلد.

ومن ثم استعدت الفرقة للعمل بقرب إنتهاء فترة استراحتها، إثر إنذار للمساعدة، وبقي وان وصديقه رامان وحدهما.

- أريد أن أبلغك شيئاً... هل تتذكر الفتاة التي تحدثت لك عنها في المتجر؟

- نعم، ومقتطفات من حديثنا في تلك الليلة.

- إتصلت بي فيما بعد، واعتذرت بشدة، بسبب التصرف غير اللائق، وأنها فكرت جيداً، وأبدت رغبتها بالزواج إن قبلتُ، فوافقت، وكان من المخطط أن نتزوج دون إقامة حفل الزواج، وقررنا أن نذهب إلى إحدى الدول القريبة لشهر العسل... ولم أكن أعرف أن الحب هو الإبتعاد عن شخص خشية الوقوع في حبه. وبما أنها جاءت في الوقت الذي كنت أرفض الحب، لذا فقد أحببتها من كل قلبي، أحببتها أكثر مما ينبغي.

رمى ببصره بعيداً، وذهب مع نفسه قليلاً إلى غابة ذكرياته الموحشة، وتمتم مع نفسه قائلاً: يا قطعة من جنتي، كم اشتقت إليك!... أخشى أنني أخذت بعضاً من نصيبي من الجنة... ثم التفت إلى وان قائلاً:

- لن أنسى أول لقاء لنا: رفعت يدي قائلاً يا الله تدرك أنني أحب أن تكون حلالاً لى، فإن كان هذا الأمر خيرٌ لنا فأتممه، وإن.... وسكت... فرفعت هي الأخرى يديها قائلة: يا الله دعَه لي وسأصلُحه... ولم أكن أعرف أن الحب هو تجاوز كسر الخواطر، كم غريبة قوانينك أيها الحب؟!... ولكن... صمت مخنوقاً بالبكاء. وهو يقول: كم نحن تعساء؟! يزورنا الموت كل لحظة، فلا يجد ما يأخذه فينا فيعود مقهوراً. لم نكن سيئين أبداً، فلماذا تسئ إلينا الأيام؟... ثم سكت مخنوقاً تذرف عينيه دموعاً حارة أسفاً عليها، وشوقاً لها، وقد ابتلعه الحزن. وددت لو أن كل ما تعانيه من أوجاع وآلام تصب في جسدي الذي

أنهكه المرض الخبيث، لكنها أخذت أوجاعها وورثتني آلاماً وآهاتاً لا أقدر على حملها.

وقد استنتج وان أن مكروهاً قد أصابها، وكان يقتبس من وجهه حزناً كئيباً طغى على حياته، وكان صادقاً في حدسه، ومصيباً في استنتاجه... وكان يقول في نفسه: أيها الحب، هل قوانينك ثابتة في كل الأزمان، أم تتغير؟!

- لكن أصابها الفايروس اللعين، وأدخلت الحجر الصحي، وقبل أيام تم إبلاغي بالتوجه إلى المركز الصحي، لتسجيل بياناتها، حيث إنها قد فارقت الحياة... لم أكن أتصور أن نار حبها ستشعل قلبي ونار فراقها ستحرق فؤادي. فما زلت تحت تاثير سكرات عشقها، وطيفها لا يفارق مخيلتي، فلا الذكريات تداوي وجعي، ولا المراسيم تعزّيني، ولا الدموع تجدي نفعاً ولا النحيب، آه يا صديقي فالحنين يسلب روحي، وذكراها مصلوبة في قلبي، تناجيها نبضاتي بأمواجٍ من تراتيل شجية رغم حزنها، تلطم شواطئ اللقاءات العابرة في ثنايا المدن البعيدة، حيث إنبثق سحر عشقنا. ولكن هل تعلم أنها أيضاً كانت مصابة بالسرطان، وقد شفيت منه.

فيبدو أنه كان يسترجع شريط ذكرياته، وخمّن سبب هروبها من رامان عندما أتيا إلى ذكر المرض الخبيث، فقال في نفسه، لابد يا رامان أنك فكرت ألف مرة بتلك الليلة.

ثم ضرب طرف الكرسي بقبضته وقال: عندما قال بوريس جونسون، رئيس وزراء بريطانيا، استعدوا لتوديع أحبائكم، تصورت أننا سنفقد الكثير منهم وقد يفقدنا أحدهم.

– لكنني لم أكن أتصور يوماً بأنني سأفقدها وبهذه السرعة. ولكن ما عسانا أن نفعل، لقد عملنا ما بوسعنا، وهل سنفقد المزيد من أعزائنا؟... قالها بعصبية هذه المرة.

– ومن منا يعرف؟!، حتى قارئة الفنجان غير قادرة على معرفة مصيرها، وهي تفتح الفال لغيرها وتحاول كشف ما يحمل لهم الأيام، رغم أنها لا تستطيع كشف مستقبلها.

– لم أكن أعرف أن الإرتباط بها، والدخول في دائرة الإرتباط الشرعي واقتحام أكثر المسافات حساسية، سأكتشف أرق وأحن إنسانة على وجه الخليقة، إذ قالت لي ذات يوم: رامان عرفتك إنساناً متعلماً عظيماً. تصور كل يوم، بل كل لحظة أتعلم منها شيئاً، حتى نورهان لاحظت ذلك، فبهتت صورة الحكيم، المطبوعة في ذهنها عني. أما الآن فأنا تائه تماماً.

– صديقي العزيز، عليك أن تطلق العنان لنفسك بالتجوال في الطرقات دون هدف، أو أن تصرخ في السيارة صرخات طويلة ومتتابعة، وتتحدث كثيراً إلى ابنتك. عليك أن تخرج من الصندوق الذي يقيد حركتك. صحيح أن القدر قد ضيق عليك مساراته، ولكن منحك الكثير، فها أنا بجانبك، ولديك نورهان، وقد استمتعت كثيراً بمسرات الحياة، وأنت حي ترزق، وقد ينفرج همك، فتنسى ما لاقيته في هذه الأيام العصيبة. وتذكر دائماً يا صديقي أن الحياة غامضة جداً لذا فإن (تاء) ها مغلقة دائماً، أما تاء الموت فهي مفتوحة دائماً لأننا جميعاً وفي أية لحظة مقبلون عليها، ونحن في خضم معركة شرسة، معركة

الرجاء والأمل. ... وهنا تذكر نورهان الحكيمة الشقية، فحاول تغيير مسار الحديث، كي ينتشل صديقه من محيط أفكاره الذي غرق فيه.

- رامان، كيف حال نورهان؟

- شقية نورهان، مولعة بالمطالعة والكتب، إلا أن مشكلتها، أنها تحفظ الاقتباسات وتتحدث بها، فذات مرة كنا على طاولة الطعام وحدث نقاش شبه حاد بيني وبين (نا ....)... (يبدو أنه لم يستطع النطق ببقية أحرف إسمها)... فقالت نورهان: في قانون العلاقات إن لم يكن الود حاضراً، فلا أمل في حل المسألة، فلم نتمالك أنفسنا ولم نستطع كتمان ضحكتنا، وانقشعت غيمة الخلاف. وذات يوم رفضت لها طلباً، فقالت: أجمل ما قيل عن الأب: «هو ذلك الذي تطلب منه نجمة، فيأتيك وهو يحمل على ظهره السماء»، فمنذ ذلك اليوم لم أرفض لها طلباً قط، وقلت لها: أنني أحبك: فقالت لا لحمي يؤكل ولا أسنان تباع ولا جلدي يلبس، فلماذا تحبني. وذات يوم، أحست بالإهمال من قبل (...)، فقالت لها: أحبك بشدة بحجم إهمالك لي تماماً. فلم تتمالك نفسها، وضمتها بشدة وكأنها فلذة كبدها، فقلت: أصبحتم أصدقاء!، فردت: إلا أن بعض الأصدقاء لا يقفون إلى جانبك، إلا عند التقاط الصور. وكانت تقصدني، وبعد ذلك بأيام قالت لي: أصبحت مهووسة بأمي (فكانت تناديها ماما) بشكل لا أتصوره، ولن أتحمل بل سأجن إذا حدث لها مكروه لا سامح الله.

- إنها نعمة من السماء.

ومن ثم مسح رامان دموعه، وللم أذيال الحزن والخيبة، والتحق بالفرقة، تاركاً وان وحده جالساً على الكرسي الحديدي، الذي تذكر صديقه شاكراً، فابتسم قليلاً وقال: صديقي العزيز، هل كنا نعلم أن الأمور ستسوء إلى هذا الحد؟ كنا منشغلين بنزاعاتنا، فأصبحنا جميعاً في نزاع مع الموت، مع كائن صغير يسبب لنا كل هذه المآسي. أترى ذلك؟ أترى ماذا حل بنا؟، من كان يتصور ما سيحدث؟. كمٌ هائلٌ من الذكريات السعيدة والحزينة تدفقت دفعة واحدة، بعثت من قبورها في قلبه، كاد أن يفقده قدرته على ترويضها، فتذكر ملاك وإبتسامتها الصادقة، وتذكر هدى التي كسر خاطرها، سمر، ثم منال وأنوار، كريم وعائلته، رواء وزوجها، نور ذاك المسكين الخائب، سوزان التي حولت حياة شاكر وزوجته إلى جحيم لا يطاق، ووار الذي كان على بعد خطوات من الإنتحار، كذلك رحاب، وجميع من على الأرض في نزاع مع أنفسهم، مع الآخرين، من أجل شيء قد يكون تافهاً فيما بعد، فالشيء قد يفقد قيمته، بمرور الزمن. ثم قال: من رأى مصائب غيره، هانت عليه مصائبه.

وبأخذ قسط من الراحة على الكرسي الحديدي، أمام الساعة الكبيرة في الساحة العامة وسط المدينة، وتحت ضوء باهت لمصباح كهربائي، رفع رأسه إلى السماء قليلاً، ومن ثم بمجرد النظر إلى الأرض لاحظ بضع قطرات من الدم شبه الجاف، تجمعت حولها حشرات أخرى، ولكن المشهد لم يكن مألوفاً. إنها حشرات ذات حجم أكبر من الحجم المعتاد، وقد شكلت خيوطاً لأفكارٍ مبعثرة، فكرة أكبر في مخيلته الخصبة.

قطّب حاجبيه قليلاً، وتذكر قول امرأة كانت قد إتصلت بهم مساء اليوم، واستفسرت عن ظرف أسود مربع صغير جداً، سقط في حديقتها من طائرة مروحية تجوب أجواء المدينة، فحاول إيجاد رابط بينها وبين قصة البعوض الغريب، والخفافيش التي ظهرت في الآونة الأخيرة. فتشكلت لوحة سوداء مخيفة، تنذر بكارثة قد تقع قريباً.

فاتصل برئيس دائرة الصحة، وشرح له وان الموضوع، الذي طلب منه التقاط بعض الصور لها، حالما يصل هو شخصياً مع فريق خاص إلى الموقع.

- إن حجمها أكبر من الحجم المعتاد... قال أخصائي بعلم الحشرات.

- ربما لأنها تغذت على دماءٍ كثيرة؟... قال أحد الأطباء.

- مهما يكن الأمر فحجمها ثابت، وعمرها محدد... رد عليه الإخصائي بنبرة صوت حازمة.

- هل تفكرون بمثل ما أفكر؟... رئيس الصحة

هز وان رأسه دليلاً على الموافقة: أنا شخصياً أرى أن هذه الحشرات كذلك البراغيث والخفافيش أيضاً، تنقل الفايروس من خلال قطرات الرذاذ التي تصادفها، فتنتقل عدوى المرض من شخص مصاب إلى آخر سليم. فداس الطبيب ذي الأنف الكبير وتحته ما يشبه سرب النمل، على إحدى الحشرات وقال: هذه مدينتنا، لا تشبهها أية مدينة أخرى، ولا يشبهها مكان آخر، نحن فيها ونشتاق إليها، نبتعد عنها فيزداد عشقنا لها، واليوم

أغلقها فايروس سخيف، أيها التافه، نحن ننتمي إلى هذا المكان وسندافع عنه، سنهزمك مها بلغت التضحيات.

قال رئيس الصحة: سأتصل بالمحافظ، ونعقد جلسة طارئة لخلية الأزمة، وسأطرح فكرة القيام برش المدينة بمبيد الحشرات، ومتأكد أنه سيوافق على ذلك؛ لذا مع طلوع الشمس ستتخذ الإجراءات اللازمة لذلك.

وهناك معلومات أخرى من مؤسسات طبية دولية تعمل على كيفية التعامل مع هذا الفايروس، ألا وهي: أنه قبل وصوله إلى الرئة من السهل القضاء عليه، أو على الأقل لا يشكل خطورة على المصاب، فإنه يبقى في الحنجرة أربعة أيام وفي هذا الوقت يبدأ الشخص بالسعال وألم في الحنجرة، فإذا ما قام بغلي الماء في إناءٍ واستنشق البخار المتصاعد منها، لمنع الفايروس من الوصول إلى الرئة عن طريق الفم أو الانف، فسيتم القضاء على الفايروس والتخلص منه، وهي تقنية استخدمها أجدادنا، سنذيع الخبر صباحاً ونوزع التعليمات على جميع المراكز الصحية، كي نستطيع إنقاذ ما يمكننا إنقاذهم.

وعلى إثر صوت جرس هاتفه، غادر رئيس الصحة وفريقه المكان، بعد أن شكر وان، الذي التحق بفريقه بعد ذلك بقليل، متأملاً نجوم السماء الصافية التي تظهر وتختفي.

بدد صوت جرس هاتفه سلسلة أفكاره وشريط ذكرياته، إنه إتصال من هدى.

– هدى!... هدى!...، من هي هدى؟ هدى!، سيدة الأعمال الأنيقة.

– وان، أنا هدى، أتصل بك للأطمنان عليك، وأحوالك، وعائلتك.

– شكراً هدى، نحن بخير وحالنا حال الجميع، أما أنت؟

– توفي أبي، وأمي مريضة في الحجر الصحي، كذلك أخي، وقد خرجت من الحجر قبل ساعتين، وسيخرج أخي أيضاً حسبما أطلعني مدير مركز شيرين، فقط أردت الإطمئنان عليك.

– شكراً هدى، سأتصل بك فيما بعد، كوني قوية كما كنت، ستمر هذه الأيام الصعبة، فإرادتنا أقوى من هذا الوباء، أعدكَ بذلك.

– هذا ما كنت أحتاجه... ثم قالت في نفسها: في ذلك اليوم كان بإمكانك أن تنطق بكلمة تنقذ نفسي من كل هذا الدمار الذي حطمني لكنك فضَّلت الصمت، فجمرات الشجن في فؤادي لم تتمرد بعد.

– هناك أمر آخر أيضاً، أريد أن أتبرع بمبلغ مالي.

– في الوقت الحالي لا أتصور أننا بحاجة إلى المال، ولكن حالما تنتهي الأزمة، وأتصور أننا اقتربنا من ذلك اليوم، حينئذ سنحتاجه.

– سأتصل بمن أراه يسهم في فكرة إنشاء مشروع منظمة خيرية لمساعدة ذوي الضحايا وتخفيف بعض معاناتهم، أو إنشاء دار للأيتام، أو ما شابه ذلك.

– فكرة جيدة، سأكون على إتصال بك...

قالها وان وهو ينفض الغبار عنه، ونزع قفازاته وكمامته وأبدلها بأخرى في حقيبته التي تلازمه دائماً.

سأكون على إتصال بك، ولكن كيف سيكون على اتصال؟!، ومتى سيتصل؟!، إنها معادلة معقدة بالنسبة له.

التحق وان بفريقه الذي كان يساعد امرأة عجوز واهنة لم يبقى ما تتكئ عليه غير إبنها، شارف عامها التسعين على الإنتهاء، بنقلها إلى المستشفى بعد إتصال هاتفي من أهلها، لسوء حالتها الجسدية والنفسية. وأثناء الطريق مسكت العجوز يد وان قائلةً له، دكتور، ظناً منها أنه طبيب؛ لأن زملاؤه كانوا ينادونه بالدكتور، كونه أُستاذ جامعي، أمسكت يده بقبضتها القوية قائلة:

- إن نجحت في الوصول إلى المستشفى هل سأموت؟.

- وهل تراني ملك الموت؟... فقال وان مازحاً

- لا يا بني أراكم ملائكة الرحمة، تحاربون الموت. ولكن هل سأموت؟، إن وصلت إلى المستشفى.

- بعد هذا العمر، وهذه المصائب، هل ترغبين أن تعيشي لتعايشي مزيداً منها؟

أجابت والدموع تملأ عينيها الصغيرتين كبحر عميق أزرق، ثم تنساب حبات منها كنهر بين تجاعيد خديها بصعوبة بالغة، لشدة الإنحدارات وجفاف جلد وجهها الحنطي، فتمسحها بيدها دون الأخرى، التي مازالت ممسكة بيده. وكأن تلك الدموع تعرف طريقها جيداً لأنها قد إنسابت كثيراً، إنها دموع الموجوعين.

- لست ريشة في مهب الريح، عشت أياماً ثقالاً، وعايشت ظروفاً يعجز اللسان عن وصفها، لكنني أريد أن أعيش أياماً فقط،

لأرى حفيدتي التي ستولد بعد ساعات، أو أنها قد ولدت، وقد أسميتها حياة؛ لأننا حتماً سنحيا بعد كل ما فعلت لنا الدنيا، وما رسم لنا القدر من مسارات، وهذا المرض الخبيث، الذي صنعته الصين، آه لم نر شيئاً جيداً من الصين هذه، فكل شئ ردئ يأتي من هذه الدولة التي يأكل شعبها كل شيء، حياً أو ميتاً.

- ستعيشين، وسترين حفيدتك حياة، وستكونين شاهدة على حياة شعبٍ بل شعوبٍ، شاهدة على صراع الحياة والموت، ولكن ليس كل شيء ردي منشؤه الصين، فالصين تصنع كل شيء والناس يختارون ما يتوافق ومصالحهم.

كان وان يتحدث إليها ويتأمل ملامح وجهها، فكان وكأنه يرى وجه شاكر، كذلك نبرة صوتها، تشبه قليلاً نبرة صوته، فأثار ذلك فضوله.

- هل لديك أبناء؟.

- نعم بنت وولد، تزوجت إبنتي ابن عمها الطبيب وسافرت إلى كندا، إتصلت بي قبل أيام وقالت، أنه طلب من الحكومة الكندية السماح له بالتطوع ضمن فريق سيتوجه إلى كوردستان.

- وابنك؟

سقطت دمعة أخرى من عينيها وسالت على خدها الأيسر في مجرى آخر.

- إنه مصاب، وقد نقل إلى المستشفى قبل أيام ولا أعرف عنه شيئاً، ولكنني متأكدة من أنه حي يرزق؛ لأنهم لم يخبروني بموته إلى الآن، لذلك حتماً فهو حي ويتماثل للشفاء، وأرجو أن

أراه في المستشفى ونغادرها معاً، إنه هو والد حفيدتي، التي قد ولدت في هذه اللحظة.

لقد كان رضيعاً، عندما هاجمنا صدام (وتقصد صدام حسين الرئيس العراقي الذي تعرض في عهده الكورد للأنفال - الإبادة الجماعية)، فسلمته لعمته التي تمكنت من الفرار مع بعض أهل القرية، وبقينا نحن محاصرين، ثم جاء الجنود وقتلوا الكثير من الرجال وخاصة الشباب منهم، وأتذكر امرأة، كانت حامل، عارضتهم، وشتمتهم، فجئ بها أمام الجميع وبقروا بطنها بسكين حاد... صمتت برهة من الزمن، وكانت مخنوقة ونبضات قلبها تدق بوتيرة غير اعتيادية، ثم تابعت قائلةً: ووقع جنينها على الأرض أمام الجميع، الذين لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً، فقط حاولنا إدارة وجوهنا لهول المشهد؛ فأيدينا كانت معصوبة من الخلف، ثم اختاروا رجالاً آخرين ووضعوهم في حفرة أحدثتها قنبلة كبيرة قبل ذلك بأيام. ورموا عليهم بوابل من نيران بنادقهم، فصرخ الجميع من هول المنظر المفجع، ودفنوا هناك وقد يكون بينهم من كان جريحاً لم يفارق الحياة، ومن ثم سمعنا أن بعضهم قد نجا وهرب إلى المناطق الجبلية.

وعن طريق سيارات الجيش الكبيرة التي تسمى إيفا، تم نقلنا إلى قلعة كبيرة محصنة في المدينة، أشبه بجهنم، تعرضنا فيها لشتى أنواع التعذيب والإهانة فرادى وجماعات، كذلك الاغتصاب. أيامٌ صعبة جداً لن تمحى من ذاكرتنا، وبعد سنين طويلة من الغربة، رأيت مرة أخرى ولدي شاكر، الذي لم أرضعه

إلا مرات قليلة، ولم أره يكبر؛ لذا أريد أن أرى حفيدتي تكبر أمام عينيَّ يوماً بعد يوم.

وما أن وصلوا إلى المركز الصحي، لاحظ وان شخصاً يشبه شاكر في ملامحه، لكنه مغبر الشعر، والدم يسيل من يده اليسرى قليلاً. فناداه: شاكر ليتأكد من هويته، فالتفت إليه، دون أن يتقدم.

- شاكر هذه أمك؟، فأسرع شاكر خطاه باتجاههم، والتفت وان إلى المرأة العجوز دون أن يلاحظ تراخي قبضة يدها الممسكة بيده، فوجدها قد فارقت الحياة مبتسمة.

وما إن رآها شاكر حتى وقع أرضاً من شدة الصدمة.

- شاكر تماسك قد تكون مغمية.

- خرجت قبل ساعة من الحجر، والآن فقدت زوجتي، وإبنتي كذلك، وها هي أمي تفارق الحياة أمامي.

ثم رفع رأسه نحو السماء، وصرخ صرخة أفزعت جميع من في ذلك المكان، إنها صرخة الغريزة، الصرخة التي تصدر من إنسان يحاصره الشقاء من كل جانب.

- ماذا فعلت، ماذا فعلت، حتى... وقبل أن يكمل عبارته، خرجت من بين شفتيها الجافتين آهة، وتنهيدة وجع.

- شاكر أهذا أنت؟... فألقى شاكر وبكل ثقله على جسدها الضعيف المترهل، وعانقا بعضهما بعضاً. وكإنه يحاول إنتشال بقايا أحلامه من بين حطامها.

وشاهد وان مضمدة تركض باتجاه شاكر، تتنفس بصعوبة بالغة، وتبشره بأن زوجته كانت غائبة عن الوعي وقد فاقت من

غيبوبتها، وسيجري لها عملية ولادة قيصرية، وأن الطفلة بحالة جيدة.

حينئذ رفع شاكر يديه إلى السماء قائلاً: لا أعرف ماذا فعلت كي أستحق كل هذا؟.

ربت وان على كتفه فعزّ عليه أن يراه يتألم.

قم يا شاكر واذهب إلى زوجتك فهي بحاجة إليك، وهم سيعتنون بوالدتك، ولكن بشرها بأن حفيدتها ستسلم عليها بعد قليل.

وأدخلت العناية المركزة لإجراء ما يلزم، إذ أصاب أمعاءها جفاف شديد بسبب سوء التغذية.

- يا لها من حياة، ويا لها من إلفة بين جيل يستقبل الحياة، وجيل يستدبرها.

ثم فكر قليلاً بصوت المضمدة، التي عرف من خلال نبرة صوتها إنها أفراح، ولكن وجهها كان مغطى بكمامة زرقاء، وتلبس قفازات بيضاء ملطخة بالدماء، كذلك ملابسها.

- أفراح أهذه أنت؟... خاطب وان المضمدة، التي اعتذرت بسبب إنشغالها بشاكر، ولم تسلم عليه.

- نعم أستاذ، هذه أنا، أفراح الطائشة كما لقبتني ذات مرة، لقد تطوعت في العمل مع فرق الإستغاثة، وتدربت على الإسعافات الأولية، والآن أعمل كمضمدة في هذا المركز الصحي، مستثمرة طاقاتي وطيشي في خدمة الإنسانية، وأعتبر هذا الوباء تجربة لن تتكرر؛ لذا فتقديم المساعدة للمحتاجين وخدمة الوطن، فرصة لن تتكرر، لذا فقد إقتنصتها لأسمو بنفسي ولو مرة في حياتي،

ووضعت ضوابطاً جديدة لعلاقاتي وتعاملاتي. وأتذكر أنك كنت دائماً تقول أن المحن تكشف معادن الناس، وها قد كشف الوباء معادننا جميعاً، فرغم طيشي كان معدني نقياً.

وأبشرك أنني اليوم سمعت الأطباء يقولون أن مصلاً أو مضاداً للفايروس قد تم صنعه وتجربته، في روسيا، وأثبت فعاليته في شفاء المصابين بالفايروس القاتل، وتم توزيعه على دول عديدة، وأن كميات كبيرة منه في طريقها إلى مستشفيات المدينة، قد تصل خلال الساعات القليلة القادمة.

- دكتور، هل تتذكر نيفين؟!، إنها في المستشفى بجوار زوجها المصاب بمرض خطير.

- نعم أتذكر تلك المدللة، هل أستطيع زيارتها.

- نعم إنها في الطابق السادس الغرفة الثانية.

دقائق ووصل إلى ردهة الطابق السادس، فرأى امرأة خمسينية بدت عليها علامات الثراء والرفاهية، وإمارات التعب، جالسة على إحدى المقاعد بجوار رجل دفن رأسه بين يديه الكبيرتين وقد أدار عنهما الهناء طريقه، فلم يعرف هل هما والدا نيفين أم والدا رامي زوجها؟.

فخطا نحوهما بحذر، وما أن اقترب حتى رأى نيفين وهي تخرج من الغرفة، وتتحدث إليهما قليلاً، ثم اتجهت نحو صالة الإستراحة، فأعقب أثرها، وقبل أن تجلس شاهدت وان، فابتسمت ورحبت به، لكنها سرعان ما انهارت وبدأت الدموع تنهمر من عينيها اللوزيتين البراقتين اللتين تشعان براءةً لكنهما

تورمتا من شدة البكاء، فمسحتها على وجه السرعة بطرف كمها وقالت:

- أعتذر دكتور لم أرحب بك بالشكل اللائق.

- فات زمان الأتكيت، ولعله يأتي يوماً، وضعك مزرٍ جداً.

- نعم دكتور، إنك تعرف البدايات، وسأقص عليك خاتمة قصتي، فقبل شهر وبعد أن استنفذت جميع محاولاتي، ومحاولات أهلي، طلبت الطلاق، لكنه مرض مرضاً معدياً شديداً، وهو وكما ترى في المستشفى، وأنا أقف إلى جانبه وأعتني به، لأن الطبيب منع والديه حتى الإقتراب منه. أما هو وفي قمة ضعفه، لم يبدي ندمه، وتعمد إهمالي، فمنذ اليوم الأول من زواجنا وأنا أتحمله وأتحمل إهاناته وإهماله، وأقدم التضحيات دون مقابل، ولكن لمن؟، لشخص لا يقدر تلك التضحيات؟، تصور إنه ينتظر أن أتصل به كي يرفض مكالماتي، ولذلك ننتظر خروجه من المستشفى كي نستكمل إجراءات الطلاق رسمياً، وأنهي هذه العلاقة الهشة، العلاقة المبنية على أساس غير متين، علاقة مبنية على أنقاض روح منهارة، وأخرج من هذا الكابوس المرعب.

- قدرك نيفين، فأحياناً يخبأ لنا القدر ما يشيبنا. ولكنك مازلت في مقتبل العمر، ومازال المستقبل أمامك، اهتمي بنفسك، صحتك، مستقبلك، وبمن حولك حسب المواقف. لا يطلب منك أن تكوني ملاكاً، فقط إنسانة.

- دكتور، كيف أكون ملاكاً؟، إذا لم أكون في الجنة؟!. فالذي

يطلب من إنسانة أن تكون ملاكاً عليه أن يحول بيتها إلى جنة... وكان يطلب أن أكون ملاكاً، في الوقت الذي كنت أعيش جحيماً. لقد كان زواجنا كزهور جميلة نقشت بألوان زاهية على لوحة علقت على جدار متحف قديم، لا روح فيه ولا إحساس، ولا رائحة، لذا أريد أن أمزق تلك اللوحة، كي تنكسر تلك الأحاسيس المصطنعة التي حفظت في الثلج. فلم يكن وجوده في البيت سكينة، ولا رؤيته تغمرني بالسعادة.

– منطق صحيح، هل تتذكرين زميلتك نازك، لقد كانت مصابة بذلك المرض الخبيث، ومات والدها أيضاً بنفس المرض، وقبل فترة توفت والدتها أيضاً، ولكنها تحدت الموت، والآن تواصل دراستها، وتهتم بمستقبلها.

– نعم دكتور لها شخصية قوية، وهل عرفت أنها خطبت قبل وفاة والدتها؟

– فاتني ذلك، ولكنها لم تخبرني.

– يبدو أنها لم تخبر أحداً، لأنها كانت تحضر نفسها لمفاجئة الجميع بالدعوة لعرسها، ولكن الظروف لم تسمح لها بذلك.

– هل لديك أخبار عنها.

– للأسف لا دكتور، فقد إنشغلت بزوجي ومشكلتي.

– معضلة وستمر، أنت بحاجة إلى استراحة، لن أفسد عليك استراحتك، أعرفك قوية، أستأذنك على أمل أن أراك قريباً في ظروف أفضل.

بزغت الشمس من خدرها بحياء شديد، ومازال الصمت المرعب، والسكون الرهيب يتنازعان السيادة على المدينة، فكان بالإمكان حتى سماع صوت دبيب النمل الخاوية بطونها، فأصوات صافرات سيارات الإسعاف، لا تسمع إلا نادراً ومن بعيد، ومكبرات الصوت قد صمتت، حتى أصوات سيارات الفرق الصحية والفرق المتطوعة، كان من النادر سماعها. فشعر الجميع بأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، وكأن ما سبق لم يكن سوى إعلان الحرب فقط، كأن هناك شيئاً ما سيحدث، سيغير مجرى الأحداث، وهو أمر مؤكد، ولكنه جيد أم سيء، خير أم شر، لا أحد يعلم، وكل شخص يتوقع ما سيحدث، وفق مبلغ عقله، وخلفيته الثقافية، وتحليلاته الشخصية، وما عاصر من تجارب وخبرات. وكان السؤال الأكثر إثارة: أتظن أنها بداية الحرب العالمية الثالثة، أم هي نهاية العالم؟ فرضيتان كل منهما أسوأ من أختها.

ساعات من الترقب، والعيون شاخصة، والآذان منتصبة، والأيدي ترتجف، والقلوب تنبض بحذر شديد، الأنفس منقبضة، يد على القلب وآخر على الفم، وكانوا متأهبون لأمر جلل، ينتظرون لحظة انفجار قنبلة، ستحدث ضجة عظيمة، ودماراً كبيراً.

مرت ساعات الترقب تلك، وأعقبتها أخرى، حتى غربت الشمس، وأسدل الليل بظلامه الداكن، وظهرت النجوم المتلألئة في السماء الصافية، والقمر كان مكتملاً وفي أبهى صورها. ترتسم ملامح نصر عظيم.

ليلة طويلة أخرى، عاشها أهل المدينة، يعمل الجميع فيها بصمت مطبق، فملّ السكان من إمكانية سماع خبرٍ سار، ويقول

بعضهم في قرارة نفسه، دون أن يقدر على الإفصاح عنه، قد يكون يوم القيامة، وكأنهم كانوا ينتظرون سماع البوق العظيم.

قبيل الفجر، كانت هناك حركة مرورية ملفتة للإنتباه، لاحظه الجميع، إنه من دلائل الإنفراج.

رجع وان إلى البيت منهكاً، وتوجه الى الحمام، وترك مهمة تنظيف جسده المنهك للمياه الدافئة، كما لو كان يحمل ثقل العالم كله على منكبيه، وارتمى على فراش في الطابق السفلي ليستريح قليلاً، وكأن لسان حاله يقول: وليس بوسع أحدٍ أن يبلغ الفجر من دون قضاء ليلة مظلمة. ويبدو أنه كان بأمس الحاجة إلى جرعة كبيرة من السلام النفسي كي يستفيق من حلم جلي الإشارات يضئ بعض مسارات القدر، وبعضها الآخر تبقى قاتماً كظلمة الليل الدامس في حلكة الكون الواسع.

أحست زوجته بكل ذلك وتتبعت تحركاته في مخيلتها؛ لأنه طقس يومي، يتكرر كل ليلة تقريباً، فحضّرت له العشاء، إلا أنه ولشدة تعبه لم يستيقظ، بل نام قرير العين مرتاح البال، فبدا وكأنه يحلم بغد مشرق، يا للهدوء العجيب الذي يحيط به. فمسحت بعض قطرات الماء على جبينه، واستلقت إلى جواره، فسمعته يقول:

– لو خيروني ألف مرة لاخترتكِ، فأنتِ الإستثناءُ الذي أحببته، وما زلت.

– ما دمت قادراً على الإحتفاظ بمن تحب، فإفعل ولا تبالي... وأؤمن أن شيئاً رائعاً على وشك الحدوث.

في الصباح الباكر، حاولت زوجته استيقاظه، فنادته بصوت منخفض كالعادة، ثم حركته بيدها اليسرى، ثم بكلتا يديها دون جدوى، إتصلت بالخط الساخن، فوصلت سيارة إسعاف في الحال. ويبدو أنه ولأول مرة يتسبب وان بخيبة أمل، إذ ظن الناس أنها ما زالت تنقل المصابين بالفايروس إلى المراكز الصحية.

لكنها بقيت السيارة الوحيدة التي سمع صوتها منذ الصباح الباكر، ولم يتكرر سماع صفارات سيارات الإسعاف بعد ذلك، ودبَّ حركة غير عادية في المدينة، فرق من قوات الأمن توزع بكثافة في الشوارع.

تم رفع الإجراءات الحكومية بالتدريج وبشكل سلس، بدءاً من إعادة فتح شبكات التواصل الأجتماعي، التي توقفت أنشطة روادها وناشطيها في لحظات حرجة جداً، وعادت إليها النشاط تدريجياً برفع منع التجول بشكل محدود، ومن ثم الكلي، ثم فتحت المحال التجارية والمطاعم والمقاهي وباقي أماكن خدمة الناس، فبدأ أصحابها بتنظيفها وتعقيمها وتهيئتها قبل إعادة تشغيلها. تم إعلان عودة المدينة إلى سابق عهدها، وعادت الحياة إليها وبشكل أجمل، فكان أجمل غروب للشمس وأبهى ليلة للمدينة.

استفاق وان من غيبوبته، وراجع شريط الأحداث، الذكريات، الأشخاص، الأقوال، إلا أن الصورة لم تكتمل، فنظر قليلاً إلى ما يحدث حوله، فلم يفهم إلا أشياء قليلة.

- مرحباً بك في الحياة مرة أخرى

- كنت واثقاً من ذلك، منذ البداية، وكنت أحس به في الساعات الأخيرة من ليلة أمس، متأكد من أننا سننتصر في حربنا؛ وشعرت أنني بحاجة إلى استراحة محارب.

- أية بداية؟، وأي حرب؟، وأية استراحة؟، وأي محارب؟، لقد زال الخطر، فمدينتنا من المدن القليلة في العالم التي سلمت من الفايروسات، فلم تسجل إلا أصابات قليلة وقد تماثلت للشفاء، ونجحت إجراءات الحجر. لذا ستعود الحياة إلى طبيعتها بشكل سلس وفق خطة مدروسة.

فعلم أنه كان في نوم عميق، وحلم مرعب، وغيبوبة مخيفة، لم يرد أن يرويه... وكان يحاول أن يجمع أشلائه المبعثرة في عينيها. قائلاً: طوبى لمن يخرج تحت ركام المآسي بدروس لا جروح.

- لا عليك، هناك أخبار سارة. اتصل رامان وقال: إنه سيحدد موعد الزفاف، بعد أن بشره الطبيب بأنه سيتماثل للشفاء قريباً.

- من هي عروسته هذه المرة؟... وكأنه لم يكن قادراً النهوض من حلمه الرمادي، وغير قادر بعد على الفصل بين الواقع والحلم، أو فقد الإحساس بالمكان والزمان، فإن رامان قد قال له بأن خطيبته قد توفيت إثر إصابتها بالفايروس... ولكن يبدو أن القدر قد سحب بعض أوسدته الباهتة من تحت بعض الأحداث المريبة وغير بعض مساراته.

- نازك، ومن تكون غيرها؟!، فهو يذوب فيها عشقاً وحباً، وهي تغوص وتغرق في عشقه، وقد باعت منزلها وجميع أملاك

أبيها في القرية، وصرفتها على علاجه... لكن لا أمل للشفاء... فالأطباء حددوا مهلة ستة أشهر فقط.

- ولكنك قلت أن الأطباء بشروه بالشفاء!.

- فقط لرفع المعنويات.

- وهل تعرف نازك ذلك؟

- نعم هي في تواصل مستمر مع الأطباء.

- ورامان؟

- يبدو أنه يعرف كل شيء، لكنه يتظاهر بالتجاهل، من أجل نازك ونورهان.

- كم نحن ساذجون؟!

- نعم يا لنا من مساكين!

****

بعد أن خرج وان من المستشفى، تفقد بريده الألكتروني، فوجد رسالة من نازك تعود تاريخها لشهور مضت، لكنه لم ينتبه، تخبره، دكتور أريد أن أخبرك بأنني قد تماثلت الشفاء التام، وأنني سأتزوج من شخص مصاب بالسرطان، لأنني أحببته من كل قلبي، وسأبذل كل ما بوسعي كي أخلصه من براثن ذلك المرض الخبيث، في البداية خشيت أن أكون بعينيه صغيرة أو غير ناضجة لأن فارق العمر بيننا عشر سنوات إلا شهرين، ولكن لا أخفى عليك، أن له إبنة ذكية اسمها نورهان وددت إليها كثيراً، أعتقد أنها ستكون صديقتي المقربة، وأرغب أن

أنجب له إبنة كنورهان تماماً، وإبناً يشبه والده تماماً، ويهمني رأيك.

– تفكير صائب، ... وأوافقك الرأي... ولكن للقدر كلمته... كلنا تائهون في متاهات القدر، فنجد أنفسنا عاجزين عن التمييز، أهذا هو الحب المسرطن؟!، أم هو شيء آخر لا أعرف كنهه... ولكنك واثقة جداً من نفسك، راجياً من اللّه أن يرزقك على قدر نيتك... وأرسل البريد المتأخر.

****

رن هاتفه، نظر إليه، إنها ملاك، توقف

لبعض الوقت، لم يرد عليها، وقبل أن ينقطع الإتصال بثوان، رد على الإتصال.

– مرحباً ملاك.

– مرحباً وان، كصديق مقرب، وأخ عزيز، أريد أن أخبرك شيئاً، شاب تقدم لخطبتي.

أرادت ان تخبره أنها ستتزوج، واعتقدت أنه سيفرح كثيراً بهذا الخبر لذلك كان أول شخصاً تخبره... لكنها لم تسمع رده، ولا ردة فعله، فذهب بها الخيال إلى أيام العمل معاً، إلى سفراتهما لأسابيع ضمن فريق العمل، إلى المدن البعيدة، إلى تلك الأحاديث الطويلة، والتضامن الوجداني، والمواقف غير المتوقعة، التي أحست بصداقته، وعمقت تلك الصداقة بمرور الزمن.

– وان هل تسمعني؟!.... إنتابها شعور غريب.

– نعم، فمن فرط السعادة لم أستطيع الرد، يبدو أنه ذكي جداً فقد أحسن الإختيار، مبارك لك، تستحقين الحياة التي تنشدينها، رزقك اللّه الحياة على قدر نيتك وصفاء قلبك.

– كما توقعت، لم تخب ظني إلا لثوان، أشكرك كثيراً.

– أدعو اللّه أن تكون قادم الأيام، أسعد أيام حياتك.

حاول وان الوصول إلى بعض الكلمات التي تطير في رأسه لكنه ضلل طريقه إليها، ولم يستطع التعبير عما يجول في خاطره فتمتم بحروف متباعدة وكلمات متقاطعة مبهمة باهتة فارغة تماماً عن أي معنى، لم تفهم ملاك حرفاً منها.

خيّم صوت مخيف بين الصديقين، وسرح كل منهما في عالمه، ظنت ملاك أن وان سيرد جميلها عندما وقفت إلى جانبه، وخففت عنه محنته عندما تخلى عنه أكثرهم، في وقت كان في أمس الحاجة إليهم. وسيسأل عن الشاب المحظوظ كي يعرف صفاته، سلوكه، إرتباطاته... وغيرها من الأمور كي يظهر اهتمامه. وظن وان أن ملاك ستسأل عنه وعن مرضه، لكنها أيضاً لم تتطرق إلى ذلك أبداً، فوضعت ملاك هاتفها إلى جانبها دون أن تقفله، ووضع وان هاتفه أمامه عله يسمع صوتها من جديد، وبدأ سيل من المواقف، الأحاديث، الذكريات تتدفق كنهر جارف، أخذ كل منهما إلى أماكن مختلفة، وأزمنة مختلفة أيضاً، إلى أن لاحظت ملاك أن هاتفها يصرخ معلنا عن نفاذ شحن بطاريته، فشعرت بالذنب ظناً منها أن وان واصل الحديث معها دون أن تفهم منه شيئاً. ودق جرس هاتف وان الذي حسب أن

ملاك فقدت الأمل بعد طول انتظار، وأعادت الإتصال به، فأصابه قشعريرة سرعان ما التفت إلى الهاتف، وفتح السماعة، فسمع صوت مبحوح بالكاد يسمعه، صوت مخنوق اختلط بدقات قلب متصاعدة، مع أنين خافت.

- دكتور، توفي والدي.

- نورهان، متى؟!، كيف؟!، أين؟!

- الآن، وصلنا بريد من مكتب التنسيق الطبي...

- نورهان تماسكي، دقائق وسنكون عندكم... نورهان، نورهان، نور، هل تسمعيني؟!

لملم وان أشلاءه المبعثرة بين ملاك ونورهان، واصطحب زوجته، وكان يسوق بسرعة جنونية غير آبه بما سيحدث، وكاد أن يصطدم بالرصيف مرة، كذلك كاد أن يصطدم برجل طاعن في السن يعبر الشارع، إلا أنه نجا من الحادثتين بإعجوبة، إلى أن وصل.

****

مشهد يقشعر له الأبدان، وصل بريد إلكتروني من المستشفى الذي يتعالج فيه رامان في الهند، عن طريق مكتب التنسيق الطبي الأهلي، إلى نازك، يفيد بأن عمليته لم تنجح وقد فارق الحياة، فسقطت على إثرها في الحال عاجزة عن تحريك أي جزء من جسدها المنهار، يحاول الدكتور وان، الذي وصل في الحال برفقة زوجته أن يهدئا من روعها قليلاً، وجلسوا

جميعاً في غرفة الضيوف، كأجساد هشة بلا أرواح، لا يتحرك منها شيء سوى عيونها الخائبة، وقلوبها المنكسرة، يفرشون الحزن، يعلنون حداداً مفتوحاً.

وصلت نازك قبلهم بدقائق معدودات، ولم تكن تعلم إلا بعد أن وصلت، حيث اتصلت بها نورهان قبل اتصالها بالدكتور وان، كان وجهها كئيباً عابساً، تنهمر الدموع من عينيها بغزارة، والبكاء مكبوت في صدرها، تضرب فخذها بقبضة يدها، وتتنهد بألم وحرقة شديدين، قامت من مقعدها، معلنة التمرد على هذا الحزن الكئيب، تجر أذيال الحنين من الآن، ولماذا لا؟، فبعد أن فقدت سندها في الحياة، فقدت من ضحت من أجله كل ما تملك، فكيف ستكتمل فرحتها، وعلى من ستتكئ بعد الآن، وكانت تردد: لقد خذلت الشخص ذاته مرتين، حسبته البلسم الذي سيشفي الجروح العميقة في قلبي إثر وفاة والديَّ... فوقع الخبر شل تفكيرها، ومثلما إنهارت نفسياً، إنهارت جسدياً، وهوت على الأرض، ولولا الحضور، لارتطم رأسها بأرضية الغرفة وتهشم، لكنهم أسرعوا إليها وأنقذوها في آخر لحظة، وأجلسوها على الأريكة، فبدأت تبكي بكاءاً مراً يخرج من أعماق قلبها المحطم.

أما نورهان، فكانت الخدوش العشوائية الدامية على وجهها كخربشات بعض الفنانين، وكدمات محمرة على جبينها الأبيض العريض، الفتاة المدللة التي فقدت أهم شيء في حياتها (والدتها)، والان بعد أن ابتسم لها الدهر قليلاً، تفقد أهم شئ

في حياتها، في الوقت الذي لم تستعد بعد لمواجهة قساوة الحياة، لم تنتهي بعد من لملمة شظايا طفولتها، التي كسرت على أعتاب الحياة وأرصفة مسارات القدر.

وان وزوجته يتبادلان النظرات، ويتحدثان بلغة العيون، ليهتم كل منهما بنازك ونورهان، فاقترب وان من نورهان، وزوجته من نازك، فخرس وان، ولم تستطع زوجته أن تنبس ببنت شفة، لهول الفاجعة التي نزلت عليهم كالصاعقة ودون سابق إنذار. بحيث لم ينتبه أحد لصوت صرير الباب، ووقع أقدام شخص سرعان ما وقف على عتبة باب الغرفة.

بهت الجميع لسماعهم شبح رامان يسلم عليهم، فالتنفس من ثقب إبرة كان أسهل بكثير، إكفهرت وجوههم، وجفلت أفئدتهم، فخرجت الأرواح من أجسادهم برهة، وتخبطت ببعضها محاولة العودة إلى مكامنها، ويبدو أنها أضاعت الطريق قليلاً قبل أن تدرك، لتخرج وتعود من جديد.

- نورهان: حبيبي.

- نازك: أبي.

وان، نهض بعصبية، الحمد لله، وقال لزوجته: يا لنا من مساكين!

فترد: نعم كم نحن ساذجون؟!

وبعد أن روى عليهم رامان قصة الإتفاق مع مكتب التنسيق للتلاعب بالتقرير الطبي، لعمل هذا المقلب الثقيل، نال نصيبه من

الضربات، والكدمات، والعتاب، والنظرات الحادة المرتعشة، والمعاتبة. فقد لذته، وندم على ما فعل.

فجلس بجوار نازك محتضناً إياها، وكأنها تريد أن تدخل إلى جسده الهش ومن ثم إلى قلبه ولا تخرج أبداً، خوف أن ينقلب المقلب حقيقة مرة.

- عزيزتي من دوني كيف حالكِ ؟.
- حبيبي من دونكَ حالكٌ.
- ماذا لو اختفى المرض، والحزن، من عالمنا .
- ماذا لو اختفى ثقلاء الظل مثلك.

وكان وان يراقبهم بصمت ظاهري، لكنه في صراع عنيف مع أفكاره: ظن الجميع أن الإنسان سوف يتبدل، كذلك الأعراف، والمجتمعات والنظم العالمية، ولكن يبدو أن تغييرات طفيفة سيشهدها الإنسان، وسيستمر بالحياة محافظاً على طباعه القديمة، إلى أن ترتاح منه الأرض بما ثقلت.

وشعر وان بألم في كتفه، فالتفت إلى زوجته وقد أغمضت عينيها لتستريحا قليلاً من هول ما رأت.

- منذ مدة وأنت على كتفي متكئة.
- هل رأسي ثقيل؟.
- نعم، لا، لا، نعم
- نعم أم لا
- نعم ولا، كرأسٍ لا، ولكن بما فيه نعم.

- وهل أتعبتك؟

- لا، ولكن الكتف الآخر مات قهراً، وحسداً.

- لم تخلقي إلا لتزيدي الجمال جمالاً.

- وأنا نورهان!

- أنت منحة القدر أمي.

- ولكن هل من الضروري أن تولد السعادة من رحم الشقاء؟.

- نعم أبي إنه القدر...

- وماذا تسمين الحب الذي يولد في رحم الشقاء؟.

- دكتور... إنه الحب النقي

- نورهان، فالحياة إذاً مسارات، يرسمها القدر، ويضيئها الإرادة.